

A portrait of a man with a full beard and a turban, likely a historical figure, serving as the background for the text.

الحجاج بن يوسف الثقفي

دِمَاءٌ وَعَظَاءٌ

د. أمير محمد المدري

الطبعة الثانية

الحاج بن يوسف التقي

مواقف من حياته (دماء وعطاء)

إعداد

أمير بن محمد المدري

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الطبعة الثانية

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



دار الكتب الميمنية

للطباعة والنشر والتوزيع

صنعاء الدائري الغربي - جولة القادسية

تلفون: (٢١٥٢٤٣)

فاكس: (٢١٥٣٣٣)



للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي صنعاء - شارع العدل

تلفاكس: (٢٢٤٦٩٤)

ت: (٢٢٧٨٥٥) ص. ب. (٢٣٧٠)

القرطاسية: (٢٧٠٩٦١)

فرع عدن كريتر - الميدان - تحت فندق العامر فرزة الشيخ عثمان ت: (٠٢/٢٦٥٧٠٦)

مركز خالد بن الوليد - الدائري الغربي - تقاطع شارع الرباط ت: (٢١٥٦٩٩)



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٥
المقدمة	٨
ترجمة مختصرة	١٤
١. الحجاج وابن الزبير	١٨
٢. ذات النطاقين والحجاج	٢٤
٣. الحجاج وابن عمر	٢٧
٤. الحجاج في العراق	٣٠
٥. الحجاج وابن الجارود	٣٥
٦. فتنة ابن الأشعث	٤٢
٧. الحجاج و الأمويين	٤٤
٨. الحجاج وفراشة	٤٦
٩. الحجاج وأسرى من الخوارج	٤٩
١٠. الحجاج والشعبي	٥٠
١١. الحجاج والبُستاني	٥٣
١٢. الحجاج والإقناع	٥٥
١٣. الحجاج وابن طلحة	٥٦
١٤. نجاح الحجاج في المجال الاقتصادي	٦١
١٥. الحجاج وأم البنين	٦٤

١٦. الحجّاج ولىلى الأخيلية..... ٦٧
١٧. فتوحات الحجّاج..... ٧٠
١٨. إصلاحات الحجّاج..... ٧٣
١٩. الحجّاج و الحسن البصري..... ٧٥
٢٠. الحجّاج و سعيد بن المسيّب..... ٧٨
٢١. موقف الحجّاج مع سعيد بن جبير..... ٨٠
٢٢. موافقه مع محمد ابن الحنفية..... ٨٤
٢٣. شقيق بن سلمة يدعو على الحجّاج..... ٨٧
٢٤. مع سالم بن عبد الله بن عمر..... ٨٩
٢٥. الحجّاج وشيخ كبير..... ٩٠
٢٦. الحجّاج وعزة الأعرابي..... ٩١
٢٧. بين حطيّط والحجّاج..... ٩٢
٢٨. من خطبه في المواعظ..... ٩٤
٢٩. الحجّاج وقاتل الحسين..... ٩٦
٣٠. صدق الله وكذب الشاعر..... ٩٧
٣١. الحجّاج وأربعة وعشرين امرأة..... ٩٩
٣٢. ساء أدبه على الحجّاج..... ١٠١
٣٣. الحجّاج يعفو..... ١٠٢
٣٤. الحجّاج و جحدر بن مالك..... ١٠٣
٣٥. الحجّاج ينفق في يوم ما ينفقه الخليفة..... ١٠٦

٣٦. الحجّاج وسارق ١٠٨
٣٧. الحجّاج يأبى النبذ ١٠٩
٣٨. الخليفة عبد الملك يعتب على الحجّاج ١١٠
٣٩. عمر بن عبد العزيز يغيظ الحجّاج ١١٢
٤٠. قتل عمير بن ضابىء ١١٣
٤١. الحجّاج يعيب نفسه ١١٥
٤٢. الحجّاج يخرج من البصرة ١١٦
٤٣. غيبة الحجّاج ١١٧
٤٤. زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر ١١٩
٤٥. الحجّاج وهند بنت النعمان ١٢١
٤٦. رؤية رآها الحجّاج ١٢٤
٤٧. من صفات الحجّاج واصلاحاته ١٢٥
٤٨. مرض الحجّاج ١٢٧
٤٩. كيف مات الحجّاج؟ ! ١٢٨
- ختاماً ١٣٢
- المراجع ١٣٣



المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله المنزه عن أن يكون له نظراء وأشباه، المقدس فلا تقرب الحوادث حماه، الذي اختار الإسلام ديناً، وارتضاه، فأرسل به محمد - ﷺ -، واصطفاه، وجعل له أصحاباً فاختار كلاً منهم لصحبته واجتباها، وجعلهم كالنجوم بأيهم اقتدى الإنسان اهتدى إلى الحق واقتفاه، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة توجب لهم رضاه، أحمده على نعمه كلها حمداً يقتضي الزيادة من نعمه، ويجزل لنا النصيب من قسمه.

وبعد:

لقد بلغ الحجاج مكانة متميزة في التاريخ الإسلامي، فقلما تجد كتاباً في التاريخ الإسلامي إلا ويخصص ترجمة للحجاج يذكر فيها مآثره وأفعاله، ولقد اختلف المؤرخون القدماء والمحدثون في شخصية الحجاج بن يوسف بين مدح وذم، وتأييد لسياسته ومعارضة لها، ولكن الحكم عليه دون دراسة عصره المشحون بالفتن والقلاقل ولجوء خصوم الدولة إلى السيف في التعبير عن معارضتهم لسياسته أمر محفوف بالمزالق، ويؤدي إلى نتيجة غير موضوعية بعيدة عن الأمانة والنزاهة.

ولقد عده كثير من المؤرخين صورة مجسمة للظلم، ومثالاً بالغاً

للطغيان، وأصبح ذكر اسمه يستدعي في الحال معاني الظلم والاستبداد، وضاعت أعمال الحجاج الجليلة بين ركام الروايات التي تروي مفسده وتعطشه للدماء، وإسرافه في انتهاكها.

ويقف ابن كثير في مقدمة المؤرخين القدماء الذين حاولوا إنصاف الحجاج؛ فيقول: «إن أعظم ما نُقِم على الحجاج وصح من أفعاله سفك الدماء، وكفى به عقوبة عند الله، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد، وكانت فيه ساحة إعطاء المال لأهل القرآن؛ فكان يعطي على القرآن كثيراً، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ٣٠٠ درهم».

وقال أيضاً فيه: «وكانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق، وكان يغضب غضب الملوك، وكان - فيما يزعم - يشبه بزياد بن أبيه، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب، وقال: وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم^(١)، وقال: . . . وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كان يبغضونه جداً لوجوه وربما حَرَفُوا عليه بعض الكلم، وزادوا

(١) [إفتيات : مصدر إفتات، - افْتَأَتْ بِرَأْيِهِ : أي مَضَى عليه ولم يَسْتَشِرْ أحداً اسْتَبَدَّ به] لسان العرب: ٦٩/٢.

فيمّا يحكونه عنه بشاعات وشناعات وقد روينّا عنه أنّه كان يتدين بترك المسكر، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلّطخ بالفروج، وإن كان متسرّعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وسرائرها وخفيّات الصدور وضمائرّها» (١).

قال عنه الإمام الذهبي -رحمه الله- في (سير أعلام النبلاء): «نسبه ولا نخبه، بل نبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان. وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء» (١).

ولا يختلف أحد في أنّه اتبع أسلوباً حازماً مبالغاً فيه، وأسرف في قتل الخارجين على الدولة، وهو الأمر الذي أدانه عليه أكثر المؤرخين، ولكن هذه السياسة هي التي أدت إلى استقرار الأمن في مناطق الفتن والقتال التي عجزت الولاة من قبله عن التعامل معها.

ولا ينكر أحد نصرته لجانب من الدين، وهو من أول الناس الذين ينطبق عليه الحديث الصحيح: «إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» (٢)، ولا يجوز لنا أن ننسى الوجه الأهم الذي أطبق عليه العلماء والمؤرخون وهو أنّه ناصبي ضال ظالم فاسق فاجر سفاك للدماء.

(١) البداية والنهاية (١٢/٥٣٦).

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣).

(٢) [صحيح] (انظر حديث رقم: ١٨١٣ في صحيح الجامع)

أذل أصحاب رسول الله - ﷺ - وقتل بعضهم.

وقتل وعذب وسجن جمعاً من التابعين على رأسهم سعيد بن جبير رحمة الله عليه.

وقد نقل عن جمع من السلف تكفيره، وما دام أننا في مقام ذكر مواقف من حياته فلا بد من ذكر كل الوجوه.

وقد وضعت دراسات تاريخية حديثه عن الحجاج، وبعضها كان أطروحات علمية حاولت إنصاف الحجاج وتقديم صورته الحقيقية التي طمس معالمها وملاحمها ركام الروايات التاريخية الكثيرة. .

وعن تقييم شخصية الحجاج في ضوء حياته، يرى المؤرخون المعاصرون كالمحلل التاريخي الدكتور محمد حلمي أن الحجاج «الذي توفي بعد أن قضى في حكم القسم الشرقي من دولة الأمويين عشرين عاماً كاملة، كانت حياته كلها جهاداً قاسياً فرضته عليه الظروف الإقليمية، والاستعداد الطبيعي الذي فطر عليه، ومطامحه الشخصية في السيادة والسلطان. ويكفي في تقويم عمله وجهده أن نعود فنذكر كلمة أبي جعفر المنصور: الخلفاء ثلاثة، معاوية وكفاه زياد، وعبد الملك وكفاه الحجاج، وأنا ولا كافي لي».

ويضيف د. حلمي إلى دور أمثال الحجاج في تاريخ الدولة الأموية دعماً وطموحاً قائلاً: «وهكذا اعتمدت الحكومة الأموية على خلفاء تميز كثير منهم بالقوة وبعد النظر في اختيار الأعوان، وعرفوا متى يتدخلون في شؤون

دولتهم التي حكموها بتطبيق مبدأ اللامركزية. كما أثبت أعوان هؤلاء الخلفاء كفاءة إدارية ممتازة، ساعدت دون أدنى شك على تحقيق هدف الأمويين في الاحتفاظ بالخلافة في قبضة أيديهم أطول زمن لهم به قدرهم» (١).

وهكذا كان الحجاج - وسيظل - عبر صفحات تاريخنا الإسلامي المجيد، في رؤى المؤرخين المعاصرين، ومن سيأتي بعدنا؛ هو الشخصية المختلف عليها، وكذلك المختلف حولها.

ووقوفنا هنا مع هذه الشخصية التاريخية لا للمدح أو الذم، ولكن لأضع بين يديك أخي القارئ مواقف للحجاج نأخذ منها العظة والعبرة والعاقلة من اتعظ بغيره، وسبب آخر دفعني للوقوف مع الحجاج، هو وصف بعض الناس لطغاة اليوم أنهم مثل الحجاج، وما أصابوا كبد الحقيقة لأن الحجاج مع ظلمه وجبروته وجرائمه؛ لكنه فعل ما فعل للإسلام من فتوحات، وإصلاحات، وتثبيت الحكم للدولة الأموية التي قدمت للأمة الكثير عبر التاريخ الإسلامي إلى اليوم، وهم ما قدموا للإسلام وبلدناهم إلا الشرور والدمار، والفقر والشنار، والظلم والاستعباد، والله خير الحاكمين العليم بما تخفي الصدور أسأله أن يتولانا بعفوه وان يغفر لنا زللنا وخطأنا وهو ارحم الراحمين.

(١) الخلافة والدولة في العصر الأموي، محمد حلمي، مكتبة الشباب، ١٩٦٦م، ص ١٥٣.

د. أمير بن محمد المدري

اليمن - المهرة

Amir @al.mn



ترجمة مختصرة

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي، أمير العراق، أبو محمد. ولد سنة أربعين أو إحدى وأربعين، ومات سنة خمس وتسعين، وأمه: الفارعة بنت همام بن عروة، وكان زوجها الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب^(١).

تزوج الحجاج زوجات كثر، لكنه لم ينجب كثيراً، وخاصة من البنات، أما أولاده المشهورين فخمسة:

محمد: وبه يكنى. توفي في زمن أبيه، عبد الملك، أبان، سليمان، عبد الله: وهو الذي استخلفه أبوه على الصلاة حين وفاته.

وهو سياسي أموي، وقائد عسكري، من أشهر الشخصيات في التاريخ الإسلامي والعربي، طاغية متجبر عُرف بـ (المبير). وخطيب بليغ قائد، داهية، لعب دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية، سير الفتوح، خطط المدن وبنى واسط، وحاصر مكة وهدم الكعبة بالمنجنيق. واختلط في المخيلة الشعبية بروايات مبالغ فيها تدل على ميراث الرعب الهائل الذي خلّفه.

(١) البداية والنهاية: ١٣٧/٩

ولد ونشأ في الطائف، ثم نشأ شاباً ليبياً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن^(١)، وكان لنشأة الحجاج في الطائف أثر بالغ في فصاحته؛ حيث كان على اتصال بقبيلة هذيل أفصح العرب، فشب خطيباً، حتى قال عنه أبو عمرو بن العلاء: "ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجاج"^(٢)، وتشهد خطبه بمقدرة فائقة في البلاغة والبيان. وكان اسمه كليب، وكان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف^(٣)، وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته ثم ما يزال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرّق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيها، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط، قال عنه عمرو بن العلاء: ما رأيت أحداً أفصح من الحسن البصري والحجاج، مات بواسط سنة ٩٥ هـ.^(٤)

والحجاج لا يُحكم عليه بالكفر، قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: «أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلاً، وكان ظلوماً

(١) البداية والنهاية: ١٣٨/٩

(٢) تاريخ الإسلام: ٥٨/٧

(٣) العقد الفريد: ٢٧٥/٥

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ١٦٨/٢، معجم البلدان (٨/ ٣٨٢)، وفيات الأعيان (١/ ١٢٣).

جباراً ناصبياً خبيثاً سافكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن، قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير وحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورمية إياها بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين، ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة، وحروب ابن الأشعث له وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله، فنسبه ولا نجبه بل نبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيثار، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجملة ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء. انتهى»^(١).

ونحن في هذا الكتاب لسنا بصدد الحكم على الحجاج بدخوله النار أو الجنة، وإنما نستعرض سيرته وتاريخه لنأخذ منها العبرة والعظة، وفي طيات الكتاب رسالة إلى الذين يسلكون مسلك الحجاج في حكمهم، الذين يعتقدون أن منهج الحجاج في حكمه كان طبيعياً، وأنه يجب البطش كي يستقر أمر الحكام والحكم، فقد شهد التاريخ حكام عادلين جاؤوا في نفس الظروف السياسية التي ظهر فيها الحجاج، فحكموا العباد والبلاد بالعدل واستقرت الأحوال ومنهم عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-.

(١) [سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)].

ولقد ذهب الحجاج وأمثاله الذين يظنون أن كل من يخرج على السلطان والحكام كافر يُقتل تقرباً لله ، وكان أيضاً مذهب الخوارج الأزارقة الذين حاربهم الحجاج ، فمذهب الخوارج عموماً هو تكفير الحاكم ومذهب الحجاج تكفير من يخالف الحكام، وهما نقيضان ومنهج فيه تطرف وتشدد لا يمت إلى رحمة هذا الدين ويسره، والله أعلم بالصواب والهادي إلى سواء السبيل .



١. الحجاج وابن الزبير

لفت الحجاج أنظار الخليفة عبد الملك بن مروان، ورأى فيه شدةً وحزماً وقدرة وكفاءة، وكان في حاجة إليه؛ حتى ينهي الصراع الدائر بينه وبين عبد الله بن الزبير الذي كان قد أعلن نفسه خليفة سنة (٦٤هـ = ٦٨٣م) بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودانت له بالولاء معظم أنحاء العالم الإسلامي، ولم يبق سوى الأردن التي ظلت على ولائها للأُمويين، وبايعت مروان بن الحكم بالخلافة، فنجح في استعادة مصر من قبضة ابن الزبير، ثم توفي تاركاً لابنه عبد الملك استكمال المهمة، فانتزع العراق، ولم يبق في يد عبد الله بن الزبير سوى الحجاز؛ فجهز عبد الملك حملة بقيادة الحجاج؛ للقضاء على دولته تماماً.

قال ابن كثير: ^(١) "فلما استهلت هذه السنة (أي سنة ٧٣) استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، قد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها، حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك. وكان مع الحجاج خلق قد قدموا عليه من أرض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً، وكان معه خمسة مجانيق، فألحَّ عليها بالرمي من كل مكان وحبس عنهم الميرة، فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع

(١) في البداية والنهاية، ١٧٧/١٢-١٨٤.

في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: «يا أهل الشام، الله، الله في الطاعة». فكانوا يحملون على ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب بني شيبه، ثم يكرّون عليه فيشدّ عليهم، فعل ذلك مراراً، وقتل يومئذ جماعة منهم، وهو يقول: «خذها وأنا ابن الحواري». وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: «والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله لا أسألهم صلحاً أبداً»^(١).

وذكر غير واحد: أنهم لما رموا بالمنجنيق، جاءت الصواعق والبروق والرعود، حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلاً، فضعفت عن ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يشجعهم، ويقول: «إني خير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم»، وجاءت صاعقة من الغد، فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً، فجعل الحجاج يقول: «ألم أقل لكم: إنهم يصابون مثلكم، وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة؟ وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق يقولون:

خطّارة مثل الفنيق نرمي بها عوَّاد هذا المسجد

(١) البداية والنهاية: ٣٢٩/٨ ط الفكر.

(٢) الفنيق: الصُّبح المشرق، والمزبد: شديد البياض، والخطّارة المنجنيق.

فنزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقتة، فتوقف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطبهم الحجاج فقال: «ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته»، فعادوا إلى المحاصرة.

وهذا القول للحجاج من المواقف المضحكة التي تشير إلى ذكائه وقوة شخصيته وقلبه للحق، وتشير إلى اطلاعه وثقافته وكيفية استخدامها لصالح أهدافه.

وما زال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بأمان، ويتركون ابن الزبير، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف فأمّتهم، وقل أصحاب ابن الزبير جداً، حتى خرج إلى الحجاج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير، فأخذوا لأنفسهما أماناً من الحجاج، فأمّنها (١).

وكان عبد الله بن الزبير يخرج من باب المسجد الحرام، وهناك خمسمائة فارس وراجل، فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يمناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد، وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبره إذ بعضهم يعرف ثم ينكر
ويقول أيضاً:

الموت أكرم من إعطاء من لم يمت غبطة فالغاية

(١) البداية والنهاية : ٣٦٤/٨ ط احياء التراث.

وكانت أبواب الحرم قد قُلت من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبه، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج، وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح.

ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضارٍ، حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته، فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، بات ابن الزبير يصلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى، ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال: أذن يا سعد. فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتي الفجر ثم أقيمت الصلاة، فصلى الفجر فقرأ سورة «ن» حرفاً حرفاً، ثم سلّم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لأصحابه: «ما أراني اليوم إلا مقتولاً، فإني رأيت في منامي كأن السماء فرجت لي فدخلتها، وإني والله قد مللت الحياة، وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي». ثم قال: اكشفوا عن وجوهكم حتى أنظر إليكم، فكشفوا عن وجوههم وعليهم المغافر، فحرّضهم وحثهم على القتال والصبر، ثم نهض بهم فحمل وحملوا حتى

كشفوهم إلى الحجون، فجاءته آجرة فأصابته في وجهه، فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثل بقول بعضهم:

فلسنا على الأعقاب تدمى ولكن على أقدامنا تقطر
ثم رجع فجاءه حجر منجنيق من ورائه فأصابه في قفاه فوقذه، ثم وقع إلى الأرض على وجهه، ثم انتهض فلم يقدر على القيام، وابتدره الناس، فشدد عليه رجل من أهل الشام، فضرب الرجل فقطع رجله وهو متكئ على مرفقه الأيسر، وجعل يضرب وما يقدر أن ينتهض، حتى كثروا عليه، فابتدروه بالسيوف، فقتلوه ^(١)، وجاءوا إلى الحجاج فأخبروه، فخر ساجداً قبحه الله، ثم قام هو وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه وهو صريع، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا.

قال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، غنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا بل يفضل علينا. فبلغ كلامهما عبد الملك فصوب طارقاً ^(٢).

وكان من أثر هذا الظفر أن أسند الخليفة إلى الحجاج ولاية الحجاز مكافأة له على نجاحه، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه اليمن واليامة فكان عند حسن ظن الخليفة وأظهر حزمًا وعزمًا في إدارته؛ حتى

(١) في ابن الأثير: قتله رجل من مراد.

(٢) الكامل في التاريخ: ٤٠٥/٣.

تحسنت أحوال الحجاز، فأعاد بناء الكعبة، وبنى مسجد ابن سلمة بالمدينة المنورة، وحفر الآبار، وشيد السدود.



٢. ذات النطاقين والحجاج

دخل عبد الله بن الزبير على أمه رضي الله عنهم أجمعين، فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: «يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وتدعو إلى حق، فاصبر عليه، فقد قتل أصحابك، ولا تُمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلك من قتل معك، وإن كنت على حق، فما وهن الدين، وإلى كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن». فدنا منها فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي. ثم قال: «والله ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة على بصيرتي، فانظري يا أمه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلّمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكر، ولا عمل فاحشة قط، ولم يجز في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمّد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته، بل أنكرته، ولم يكن عندي أثر من رضا ربي لأ، اللهم إني لا أقول هذا تزكية

لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكنني أقول ذلك تعزيةً لأمي؛ لتسلو عني»، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني أو تقدمتك ففي نفسي، اخرج يا بني حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل وبعد لي. فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتل على حق. ثم قالت: «اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظماً في هواجر المدينة ومكة، وبرّه بأبيه وبّي، اللهم إني قد سلمته لأمرك، ورضيت بما قضيت، فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين». ثم قالت له: ادن مني أودعك. فدنا منها، فقبلته ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه، واعتنقها ليودعها، وكانت قد أضرت في آخر عمرها فوجدته لابساً درعاً من حديد، فقالت: «يا بني ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة». فقال: يا أماه، إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به. قالت: لا يا بني، ولكن انزعه، فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه، ويتشدد، وهي تقول: شمّر ثيابك. وجعل يتحفّظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجدّه أبي بكر الصديق، وجدّته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ، وترجّيه القدوم عليهم إذا هو قتل شهيداً. ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وعن أبيه وأبيها، ثم قالت: امضِ على بصيرتك، فودّعها وخرج وهو يقول:

لست بمبتاع الحياة بسبّةٍ ولا مرتقٍ من خشية الموتِ

وقال ابن كثير: (١) « قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، ثنا عوف عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعدما قتل ابنها عبد الله، فقال: إن ابنك أُلحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم، وفعل به وفعل، فقالت: كذبت، كان باراً بوالديه، صوّماً قوَّاماً، والله لقد أخبرنا رسول الله - ﷺ - أنه يخرج من ثقيف كذابان: الآخر منهما شر من الأول. وهو مبير. . (٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله - ﷺ - نهى عن المثلة، وسمعتة يقول: «يخرج من ثقيف رجلان: كذاب ومبير، قالت: فقلت للحجاج: أما الكذاب فقد رأيته، وأما المبير فأنت هو يا حجاج».

وفي صحيح مسلم، رقم ٢٢٩ / ٢٥٤٥ أن أسماء قالت: «أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه، فقام عنها ولم يراجعها».



(١) البداية والنهاية، ٥١٤/١٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ٥١٣/١٢-٥١٥، وتاريخ ابن عساكر، ١٢٢/١٢-١٢٢، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٣١٦/٦-٣١٧.

٣. الحجاج وابن عمر

بقي الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على مكة بعد مقتل ابن الزبير، وكان عبد الله بن عمر يترك المدينة ويأتي مكة حاجاً أو معتمراً، ويرى أو يسمع من أفعال الحجاج وأقواله المخالفة للشرع، فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويرد عليه بكل جرأة وشجاعة^(١) وبعدما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وتمت له السيطرة على مكة خطب الناس، وكان مما قال: إن ابن الزبير حرّف كتاب الله، وفي رواية غيّر كتاب الله، فقام ابن عمر وقال: كذبت كذبت كذبت، ما يستطيع ذلك، ولا أنت معه^(٢)، وخطب الحجاج الناس يوم الجمعة، فأطال حتى كاد يذهب وقت الصلاة، فقام ابن عمر: فقال: أيها الناس، قوموا إلى صلاتكم، فقام الناس، فنزل الحجاج فصلى، فلما انصرف قال لابن عمر ما حملك على ذلك؟ فقال: إنما نجئ للصلاة فصلّ الصلاة لوقتها، ثم بقبق^(٣) بعد ذلك ما شئت من بقبقة^(٤)، كما أنكر ابن عمر على الحجاج تهاونه في إشاعة حمل السلاح في مكة وتركه لرجال جيشه يضايقون به المسلمين ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففي الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان

(١) عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو ص ١٠٨.

(٢) الطبقات الكبرى (١٨٤/٤)، سير أعلام النبلاء (٢٣٠/٣).

(٣) بقبق الرجل: كثر كلامه.

الرمح في أخمص قدمه، فلزقت قدمه بالركاب، فنزلت فزعتها وذلك بمنى، فبلغ الحجاج فجعل يعوده، فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك! فقال ابن عمر: أنت أصبتني، قال: وكيف؟ قال: حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل الحرم.

وفي رواية عن إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: دخل الحجاج على ابن عمر وأنا عنده فقال: كيف هو؟ فقال: صالح. فقال: ما أصابك؟ قال: أصابني من أمر بحمل السلاح في يوم لا يحل فيه حمله؛ يعني الحجاج^(١) ولما خرج الحجاج قال ابن عمر: ما آسى على شيء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، وذكر منها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة الباغية التي حلت بنا، يقول الذهبي في تعليقه: يعني بالفئة الباغية الحجاج^(٢) وأنا أزيد: ومن أرسله.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي نوفل قال: رأيت عبد الله بن الزبير على عقبة المدينة. قال فجعلت قریش تمر عليه والناس. حتى مر عليه عبد الله بن عمر. فوقف عليه. فقال: «السلام عليك، أبا خبيب! السلام عليك، أبا خبيب! السلام عليك، أبا خبيب! أما والله! لقد كنت أنهارك عن هذا. أما والله! لقد كنت أنهارك عن هذا. أما والله! إن كنت، ما علمت، صواما. قواما. وصولا للرحم. أما والله! لأمة أنت أشرها لأمة خير». ثم نفذ عبد الله بن عمر. فبلغ الحجاج موقف

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٢٣٢).

(٢) الطبقات (١٨٥/٤) .

عبدالله وقوله. فأرسل إليه. فأنزل عن جذعه. فألقي في قبور اليهود^(١).



(١) [صحيح مسلم / فضائل الصحابة (ح ٢٥٤٥)].

٤. الحجاج في العراق

بعد أن أمضى الحجاج زهاء عامين والياً على الحجاز نقله الخليفة والياً على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان، وكانت الأمور في العراق بالغة الفوضى والاضطراب، تحتاج إلى من يعيد الأمن والاستقرار، ويسوس الناس على الجادة بعد أن تقاعسوا عن الخروج للجهاد وركنوا إلى الدعة والسكون، واشتدت معارضتهم للدولة، وازداد خطر الخوارج، وقويت شكوتهم بعد أن عجز الولاة عن كبح جماحهم.

ولبى الحجاج أمر الخليفة وأسرع في سنة (٧٥هـ = ٦٩٤م) إلى الكوفة، وبدأ حُكمه من الكوفة قوياً حازماً منذ دخوله إليها، بعد أن أمر رجاله أن يبقوا على مقربة منها، ودخلها في صحبة عدتها اثنا عشر رجلاً فقط، ثم توجه إلى المسجد، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبّح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق قال عمير بن ضابيء البرجمي: "ألا أحصيه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال خطبته المشهورة بادئاً إياها ببيت مشهور، يتوعد أهل الكوفة قائلاً:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
وما إن بدأت نبرة الوعيد تعلو، وتأثيرها يسري في سامعيه شدة وقسوة
حتى خمدوا، وخطبة الحجاج هذه مشهورة متداولة في كتب التاريخ، ومما
جاء فيها: «... يا أهل الكوفة إني لأرى أروسا قد أينعت وحن قفافها وإني
لصاحبها، وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كِنَانَتِهِ (جعبة السهام) بين
يديه، فعجم عيدانها (اختبرها)، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا
فرماكم بي؛ لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال،
وسننتم سنن العي، وأيم الله لألحونكم^(١) لحو العود، ولأقرعنكم^(٢) قرع
المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة^(٣)، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل،
إني والله لا أخلق إلا فريت^(٤)، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات،
وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟ .

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من
كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا
واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني
الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا

(١) لحا فلانا : شتمه.

(٢) قرع الشيء ضربه

(٣) العصب القطع، والسلم شجر من العضاة.

(٤) أخلق: الخلق التقدير. ويقال فريت الاديم إذا أصلحته.

السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه. ولينهبن ماله.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: «يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] والتفت إلى أهل العراق فقال: لريحكم أنتم من ريح الأبخر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: "﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه»^(١).

ثم قال: «يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ: بسم الله الرحمن

(١) الأوائل للعسكري: ٣٢٦. انظر الخطبة وبعض زيادة في ابن الأثير ٤ / ٣٧٦ الكامل للمبرد ١ / ٢٢٤ والبيان والتبيين ٢ / ٢٢٤ مروج المذهب.

الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يقل أحد شيئاً. فقال الحجاج: «اكفف يا غلام». ثم أقبل على الناس فقال: «يسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نهيّة أما والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ عليهم يا غلام كتاب أمير المؤمنين» فلما بلغ إلى قوله: سلام عليكم لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام. ثم نزل فوضع للناس أعطيّاتهم^(١).

وأتبع الحجاج القول بالفعل ونفذ وعيده بالقتل في واحد تقاعس عن الخروج للقتال، فلما رأى الناس ذلك تسارعوا نحو قائدهم المهلب لمحاربة الخوارج الأزارقة^(٢)، ولما اطمأن الحجاج إلى استقرار الأوضاع في الكوفة، ذهب إلى البصرة تسبقه شهرته في الحزم، وأخذ الناس بالشدة والصرامة وخطب فيهم خطبة منذرة زلزلت قلوبهم، وحذرهم من التخلف عن الخروج مع المهلب قائلاً لهم: «إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو؛ إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ولا تكم، ومن استرخى لبيه^(١)،

(١) وفيات الأعيان: ٣٤/٢.

(٢) الأزارقة هم أحد فرق الخوارج، وقد أجمع المؤرخون أنهم من أشد فرق الخوارج جرأة، وأعظمهم شجاعة، وأقواهم شكيمة وشوكة، و(الأزارقة) من أشد الفرق غلواً وتطرفاً، وهم يرون "أن دار أولئك المخالفين (من المسلمين) دار حرب يُستباح فيها ما يُستباح في قتال الكفار من نهب أموالهم وسبي الأولاد والنساء" (تاريخ المذاهب الإسلامية أبو زهرة ٧٠)، وزعمت (الأزارقة) "أن من قام في دار الكفر (ويقصدون مخالفيهم من المسلمين) فكافر لا يسعه إلا الخروج"، (مقالات الإسلاميين/ الأشعري ج ١/ ٨٦).

(٣) الترنيق: الضعف في الأمر "وفي البدن والبصر أيضاً".

ساء أدبه، إن الحزم والعزم سلباني سوطي^(٢)، وأبدلاني به سيفي، فقائم في يدي، ونجاده^(٣) في عنقي، وذبابه^(٤) قلادة لمن عصاني، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه، إلا ضربت عنقه^(٥).



(١) اللب: ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية.

(٢) هكذا في نهاية الأرب، وفي صبح الأعشى: "سكنا في وسطي" والأول أصح، أي أنه رأى من الحزم والعزم: المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب؛ فطرح السوط، واستبدل به ما هو أشد منه وهو السيف.

(٣) النجاد: علاقة السيف.

(٤) ذباب السيف: حده.

(٥) "نهاية الأرب ٧: ٢٤٤ صبح الأعشى ١: ٢٢٠ وسرح العيون ١٢٢".

٥. الحجاج وابن الجارود

في سنة خمسٍ وسبعينَ من الهجرة، ثار النَّاسُ بالبصرة على الحجاج؛ وذلك أنَّه خرج من الكوفة بعد أن قَتَلَ ابنَ ضابئٍ^(١)، وقدم البصرة، فقامَ فيهم بخطبةٍ مثل التي قام بها في الكوفة، وتوعَّدهم مثل وعيده أولئك. فأتى برجلٍ من بني يشكر، فقبل له: إنَّ هذا عاصٍ، فقال الرَّجل: إنَّ بي فتقاً، وقد رآه بِشَرِّ فعدرني، وهذا عطائي مردودٌ إلى بيت المال، فلم يقبل منه الحجاج وقتله، ففزعَ لذلك أهلُ البصرة، فخرجوا حتَّى أدركوا العارض بقنطرة رامهرمز، وسار الحجاج إلى رستقباد^(٢)، وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً، وإنما أراد أن يشدَّ ظهر المهلب وأصحابه بمكانه، فقام خطيباً حين نزلها فقال: «يا أهل المصريين! هذا المكان والله مكانكم شهراً بعد شهر وسنةً بعد سنة حتى يهلك الله عدوكم هؤلاء الخوارج المظلمين عليكم». ثم إنه خطب يوماً فقال: «إنَّ الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير إنما هي زيادة مخسرة باطلة من ملحد فاسق منافق ولسنا نجيزها! وكان مصعب قد زاد الناس في العطاء مائة مائة».

(١) هو عمير بن ضابئ البرجمي، اعتذر للحجاج عن الالتحاق بجيشه بسبب كبر سنِّه. للتفصيل، يُنظر: الأخبار الموقَّعات، الزبير بن بكار: ص ٩٤؛ وتاريخ، الطبري: ص ٥/ ٤٤؛ والفتوح، ابن أعثم: ١١/ ٧ - ١٢؛ والكامل في التاريخ، ابن الأثير: ١٤/ ٩.

(٢) وهي من دَسْتَوَى من كور الأهواز.

فقال عبد الله بن الجارود^(١) : «إنها ليست بزيادة ابن الزبير إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذها وأجازها على يد أخيه بشر. فقال له الحجاج: ما أنت والكلام لتحسن حمل رأسك أو لأسلبك إياه فقال: ولم؟ إني لك لناصح وإن هذا القول من ورائي.

فنزل الحجاج ومكث أشهراً لا يذكر الزيادة ثم أعاد القول فيها، فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول. فقام مصقلة بن كرب العبدي أبو رقة ابن مصقلة المحدث عنه فقال: إنه ليس للربعة أن ترد على راعيها، وقد سمعنا ما قال الأمير، فسمعاً وطاعةً فيما أحببنا وكرهنا. فقال له عبد الله بن الجارود: يا ابن الجرمقانية! ما أنت وهذا! ومتى كان مثلك يتكلم وينطق في مثل هذا؟ وأتى الوجوه عبد الله بن الجارود فصوبوا رأيه وقوله، وقال الهذيل بن عمران البرجمي وعبد الله بن حكيم بن زياد المجاشعي وغيرهما: «نحن معك وأعوانك، إن هذا الرجل غير كافٍ حتى ينقصنا هذه الزيادة، فهلم نبايعك على إخراجه من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولي علينا غيره، فإن أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج. فبايعه الناس سرّاً وأعطوه المواثيق على الوفاء وأخذ بعضهم على بعضهم العهد.

(١) هو عبد الله بن بشر بن عمرو بن عبد القيس، ولي أخوه للإمام علي اصطخر، قاد تمرّداً ضدّ الحجاج، وهُزم هو وأصحابه سنة (٧٥هـ). يُنظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٥/ ٥٥٩؛ والكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٣٨٢/٤-٣٨٥.

وبلغ الحجاج ما هم فيه فأحرز بيت المال واحتاط فيه. فلما تم لهم أمرهم أظهروه، وذلك في ربيع الآخر سنة ست وسبعين، وأخرج عبد الله بن الجارود عبد القيس على راياتهم، وخرج الماس معه حتى بقي الحجاج وليس معه إلا خاصته وأهل بيته، فخرجوا قبل الظهر، وقطع ابن الجارود ومن معه الجسر، وكانت خزائن الحجاج والسلاح من ورائه. فأرسل الحجاج أعين، صاحب حمام أعين بالكوفة، إلى ابن الجارود يستدعيه إليه، فقال ابن الجارود: ومن الأمير! لا ولا كرامة لابن أبي رغال! ولكن ليخرج عنا مذموناً مدحوراً وإلا قاتلناه! فقال أعين: فإنه يقول لك أتطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك؟ والذي نفسي بيده لئن لم يأتني لأدعن قومك عامة وأهلك خاصة حديثاً للغابرين. وكان الحجاج قد حمل أعين هذه الرسالة. فقال ابن الجارود: «لولا أنك رسول لقتلتك يا ابن الخبيثة!» وأمر فوجئ في عنقه وأخرج.

واجتمع الناس لابن الجارود، فأقبل بهم زحفاً نحو الحجاج، وكان رأيهم أن يخرجوه عنهم ولا يقاتلوه، فلما صاروا إليه نهبوه في فسطاطه وأخذوا ما قدروا عليه من متاعه ودوابه، وجاء أهل اليمن فأخذوا امرأته ابنة النعمان بن بشير، وجاءت مضر فأخذوا امرأته الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمن بن عمرو أخي سهيل بن عمرو. فخافه السفهاء، ثم إن القوم انصرفوا عن

الحجاج وتركوه، فأتاه قوم من أهل البصرة فصاروا معه خائفين من محاربة الخليفة.

فجعل الغضبان بن القبعثري الشيباني يقول لابن الجارود: تعش بالجدي قبل أن يتغدى بك، أما ترى من قد أتاه منكم؟ ولئن أصبح ليكثرن ناصره ولتضعفن متكم! فقال: قد قرب المساء ولكننا نعاجله بالغداة.

وكان مع الحجاج عثمان بن قطن وزياد بن عمرو العتكي، وكان زياد على شرطة البصرة، فقال لهما: ما تريان؟ فقال زياد: أن آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأمر المؤمنين فقد ارفض أكثر الناس عنك ولا أرى لك أن تقاتل بمن معك. فقال عثمان بن قطن الحارثي: لكني لا أرى ذلك، إن أمير المؤمنين قد شركك في أمرك وخلطك بنفسك واستنصحك وسلطك فسرت إلى ابن الزبير، وهو أعظم الناس خطراً، فقتلته، فولاك الله شرف ذلك وسناه، وولاك أمير المؤمنين الحجاز، ثم رفعت فولاك العراقيين، فحيث جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى تخرج على قعود إلى الشام، والله لئن فعلت لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من سلطان أبداً ولتضعن شأنك، ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً. فقال له الحجاج: الرأي ما رأيت. وحفظ هذا لعثمان وحقدها على زياد بن عمرو.

وجاء عامل بن مسمع إلى الحجاج فقال: إني قد أخذت لك أماناً من الناس، فجعل الحجاج يرفع صوته لسمع الناس ويقول: والله لا أوْمنهم أبداً حتى يأتوا بالهذيل وعبد الله بن حكيم. وأرسل إلى عبيد بن كعب النميري يقول: هلم إلي فامنعني. فقال: قل له إن أتيتني منعتك. فقال: لا ولا كرامة! وبعث إلى محمد بن عمير بن عطارذ كذلك، فأجابه مثل الجواب الأول، فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي. وأرسل إلى عبد الله بن حكيم المجاشعي فأجابه كذلك أيضاً.

ومر عبد بن الحصين الحبطي بابن الجارود وابن الهذيل وعبد الله بن حكيم وهم يتناجون، فقال: أشركونا في نجواكم. فقالوا: هيهات أن يدخل في نجوانا أحد من بني الحبط! فغضب وصار إلى الحجاج في مائة رجل، فقال له الحجاج: ما أبالي من تخلف بعدك.

وسعى قتيبة بن مسلم في قومه في يحيى أعصر؟ وقال: لا والله لا ندع قيساً يقتل ولا ينهب ماله، يعني الحجاج، وأقبل إلى الحجاج.

وكان الحجاج قد يؤس من الحياة، فلما جاءه هؤلاء اطمأن، ثم جاءه سبرة بن علي الكلابي وسعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فسلم، فأدناه منه، وأتاه جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع: إن شئت أتيتك وإن شئت أقمت وثبطت الناس عنك. فقال: أقم وثبط الناس عني.

فلما اجتمع إلى الحجاج جمع يمنع بمثلهم خرج فعباً أصحابه ولتلاحق الناس به، فلما أصبح إذا حوله نحو ستة آلاف، وقيل غير ذلك. فقال ابن الجارود لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأي؟ قال: تركت الرأي أمس حين قال لك الغضبان تعش بالجلي قبل أن يتغذى بك، وقد ذهب الرأي وبقي الصبر.

فدعا ابن الجارود بدرع فلبسها مقلوبة فتطير. وحرص الحجاج أصحابه وقال: «لا يهولنكم ماترون من كثرتهم». وتزاحف القوم وعلى ميمنة الحجاج قتيبة بن مسلم، ويقال عباد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسلم؛ فحمل ابن الجارود في أصحابه حتى جاز أصحاب الحجاج، فعطف الحجاج عليه، ثم اقتتلوا ساعةً وكاد ابن الجارود يظفر فأتاه سهم غرب فأصابه فوق ميتاً. ونادى منادي الحجاج بأمان الناس إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم، وأمر أن لا يتبع المنهزمون، وقال: الأتباع من سوء الغلبة. فانهمز عبيد الله بن زياد بن ظبيان، وأتى سعيد بن عياذ بن الجلمي الأزدي بعمان، فقبل لسعيد: غنه رجل فاتك فاحذره، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة مسمومة وقال: هذا أول شيء جاء من البطيخ وقد أكلت نصف بطيخة وبعثت بنصفها، فأكلها عبيد الله فأحسن بالشر فقال: أردت أن أقتله فقتلني.

وحمل رأس ابن الجارود وثمانية عشر رأساً من وجوه أصحابه إلى

المهلب فنصبت ليراها الخوارج ويأسوا من الاختلاف^(١). والاختلاف المقصود هنا أن الخوارج كانوا ينتظرون الفرج من ناحية اختلاف جيش الحجاج عليه، فلما تحملت الرؤوس يسوا من ذلك .

وعلى ما يبدو أن حرية التعبير عن الرأي لم تكن ضمن متبنيات الحجاج؛ ربما لأنه عد ذلك تدخلا في صلاحياته، وتطاولا عليه بصفته واليا، وهذه السياسة عامة لدى ساسة وحكام بني أمية، فقد نعت المؤرخون عبد الملك بن مروان بأنه أول من نهى عن المعروف، وأول من نهى عن الكلام بحضرته (أي: أول من كم الأفواه)^(٢) وقرنوا ذلك بقوله: «...والله، لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»^(٣).



(١) الكامل في التاريخ: ٤٢٧/٣.

(٢) لأوائل، العسكري: ص ٢٠٢؛ والكامل، ابن الأثير: ٤ / ٥٢٢؛ والوافي بالوفيات، الصّدي: ١٩ / ١٤١؛ وفوات الوفيات، الكتبي: ٢ / ٢٦؛ وتاريخ الخلفاء، السيوطي: ص ٢٣٩.

(٣) يُنظر: الأوائل، العسكري: ص ٢٠٢؛ وتاريخ الخلفاء، السيوطي: ص ٢٣٩.

٦. فتنة ابن الأشعث

قدّر الله أن تمرّد على الحجاج أحد قوّاده، وهو عبد الرحمن بن الأشعث، في فتنة دامت ثلاث سنوات (٨١-٨٣ هـ - ٧٠٠-٧٠٢ م)، فقد سيّر الحجاج قائده ابن الأشعث بجيش ليغزو رتبيل ملك الترك في بلاده ما وراء سجستان، وكان ابن الأشعث معروفاً بشجاعته، وبسالته، وقوّته، وبالفعل تمّ له - بفضل الله - فتح هذه البلاد والنصر على رتبيل، فأرسل ابن الأشعث خمس الغنائم إلى الحجاج، ليوّدها في بيت مال المسلمين، واستأذنه في التوقف عن القتال ريثما يتبين له أمر تلك البلاد، ويقف على معالمها ومدخلها ومخارجها حتى لا يعرّض جيشه لصعوبات ومواقف حرجية، قد تؤدي به في النهاية إلى الهزيمة والهلكة، فاستشاط الحجاج غيظاً، واعتبر ذلك منه تمرداً على أوامره، أو خنوعاً، وخوفاً وجبناً، وكتب الحجاج لابن الأشعث كتاباً يهدده، وينذره، ويلوح عليه باللائمة والنقمة، فغضب لذلك ابن الأشعث، وانتهزها فرصة، خاصة وأن الجيش ناظم على الحجاج، غير راض عنه وعن حكومته، ولا عن سياسته. فاستشارهم ابن الأشعث فيما يفعل بعد أن أطلعهم على الكتاب، فصادف ميلاً في قلوبهم، وحانت الفرصة التي يتخلّصون من حكمه، وبطشه، وجبروته، فدعوا ابن الأشعث

إلى الخروج عليه، ولما استوثق ابن الأشعث من رغبتهم هذه، أخذ منهم البيعة على ذلك، فبايعه الجند على قتال الحجاج، ودارت بينهما معارك طاحنة، كان النصر فيها حليفاً لابن الأشعث، فاستولى على سجستان، وأكثر بلاد فارس، مما شجع ابن الأشعث على مواصلة حربه وقتاله، وتخليص الكوفة والبصرة من بطش الحجاج وعتوه، ولكن مالت كفة النصر، وأصبحت من نصيب الحجاج بن يوسف الثقفي.

ودارت معارك طاحنة حسمها الحجاج لصالحه، وتمكن من سحق عدوه في معركة دير الجماجم سنة (٨٣ هـ = ٧٠٢ م)، والقضاء على فتنه، وانهزم ابن الأشعث هزيمة منكرة، فر على إثرها لينجو بنفسه، واستسلم الجيش المتمرّد، وأمر الحجاج بتجديد البيعة له، والانطواء تحت عباءته، فاستجاب الكثير، وفرّ البعض، وكان من أمر الذين استجابوا له واستسلموا أن خيرهم الحجاج بين أمرين: أحلاهما مرّ، وأخفّها تأباه النفس الأبيّة، وتلفظه الفطرة السويّة، خيرهم الحجاج بين أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر بنقض البيعة لوالي أمير المؤمنين، وبين أن يُقتلوا، فاختار بعضهم القتل على أن يتكلم بكلمة الكفر، وبعضهم استعمل التقيّة، وأخذ بالرخصة، وشهد على نفسه بالكفر كرهاً واضطراً^(١).



(١) سير أعلام التابعين، ص ٦٨، ٦٩، وانظر: سير أعلام النبلاء، ٣٢١/٤-٣٤٢، برقم ١١٦، والطبقات الكبرى، ٢٦٧/٦-٢٧٧، برقم ٢٣١٧، وتهذيب الكمال، ٣٥٨/١٠-٣٧٦، برقم ٢٢٤٥.

٧. الحجاج والأمويين

ذُكر أن الحجاج وأباه كانا يعلمان الصبيان بالطائف، ثم لحق الحجاج بِرُوح بن زنباع الجذامي، وزير عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته، إلى أن رأى عبد الملك انحلال عسكره، وأن الناس لا يرحلون برحيله، ولا ينزلون بنزوله، فشكا ذلك إلى روح بن زنباع، فقال له: إن في شرطتي رجلاً، لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره، لأرحل الناس برحيله، وأنزلهم بنزوله - يقال له الحجاج بن يوسف الثقفي - قال فإننا قد قلدناه ذلك، فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع".

ولم يفوت الحجاج الفرصة إظهاراً للولاء طاعةً لعبد الملك منذ ولي شرطته، ولو كان ذلك على حساب روح بن زنباع نفسه، ذلك الذي زكاه عند عبد الملك، وهذا ما يمكن أن نستشفه مما يرويه ابن خلكان، ذلك أنه لما رأى الحجاج أن جند ابن زنباع قد شذوا عن بقية الجند لقربهم منه حظوة ومكانة؛ متخلفين عن الرحيل؛ وقف عليهم يوماً - وقد أرحل الناس وهم على الطعام يأكلون - فقال لهم: ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقالوا له: انزل يا ابن اللخناء فكل معنا (واللخناء: أي منتنة مطاوي الجسد، والتي لم تحتن، وابن اللخناء يكتن به عن اللئيم الأم أو دنيء

الأصل)، فقال لهم: هيهات! ذهب ذلك، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط، وطوّفهم في العسكر، وأمر بفسطاط روح فأحرقت بالنار، فدخل روح على عبد الملك باكياً، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج الذي كان في شرطي ضرب غلماني، وأحرق فساطيطي" قال: عليّ به. فلما دخل عليه قال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: أنا ما فعلت؟ قال: ومن فعل ذلك؟ قال: أنت إنما يدي يدك وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح ما ذهب له عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدّمني له، فأخلف لروح بن زبّاع ما ذهب له وتقدّم الحجاج في منزلته^(١).



(١) العقد الفريد: ٢٧٥/٥.

٨. الحجاج وفراشة

قال القاضي المعافي: حدث العُتبي قال: كانت امرأة من الخوارج من الأزد يقال لها فراشة، وكانت ذات نية في رأي الخوارج، تجهز أصحاب البصائر منهم، ولم يظفر بها، وكان الحجاج يدعو الله أن يمكنه منها أو من بعض ممن جهزته، فمكث ما شاء الله، ثم جيء برجل، فقيل له: هذا ممن جهزته فراشة، فخر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: يا عدو الله؟ ! قال: أنت أولى بها يا حجاج، قال: أين فراشة؟ قال: مرت تطير منذ ثلاث، قال أين تطير؟ قال: بين السماء والأرض، قال: أعن تلك سألتك - عليك لعنة الله؟ ! - قال عن تلك أخبرتك - عليك غضب الله - قال: سألتك عن المرأة التي جهزتك أنت وأصحابك، قال: وما تصنع بها؟ ، قال: أضرب عنقها، قال: ويلك يا حجاج! ما أجهلك! أدلك، وأنت عدو الله، على ولي الله! "لقد ضللتُ إذا وما أنا من المهتدين"، قال: فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين، قال: ولم لا أم لك؟ قال: لأنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض، قال: وما هي؟ قال: استعماله إياك على رقاب المسلمين.

فقال الحجاج: ما رأيكم فيه؟ قالوا: نرى أن نقتله قتلة لم يقتل مثلها أحد قال: ويلك يا حجاج، جلساء أخيك كانوا أحسن مجالسة من جلسائك.

قال: وأي إخوتي تريد؟ قال: فرعون، حين شاور في موسى فقالوا: "أرجه وأخاه"، وأشار عليك هؤلاء بقتلي. قال: فهل حفظت القرآن؟ قال: وهل خشيت فراره فأحفظه! قال: هل جمعت القرآن؟ قال: ما كان متفرقاً فأجمعه. قال: قرأته ظاهراً؟ قال: معاذ الله، بل قرأته وأنا إليه، قال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟ قال: ألقاه بعلمي، وتلقاه بدمي. قال: إذاً أعجلك إلى النار. قال: لو علمت أن ذلك إليك، أحسنت عبادتك، وأيقنت عذابك، ولم أبغ خلافاً، ومناقضتك. قال: إني قاتلك. قال: إذاً أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك. قال: نقمعك عن الكلام السيئ، يا حرسى اضرب عنقه، وأوماً إلى السياف ألا يقتله. فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه ويروعه بالسيف، فلما طال ذلك عليه رشح جبينه. قال: جزعت من الموت يا عدو الله! قال: لا، يا فاسق، ولكن أبطأت علي بما لي فيه راجية. قال: يا حرسى، أعظم جرحه. فلما أحس بالسيف قال: لا إله إلا الله، والله لقد أتمها ورأسه على الأرض^(١).

هذا هو الحجاج مع مناوئيه، لا يسمع إلا لصوت رأسه، وبخاصة إذا كان خصمه يكيل له الصاع صاعين، لا تأخذه به شفقة ورحمة، بل كان يزيد على ذلك إذلاله، يعينه على ذلك مكانته في خلافة عبد الملك بطشاً بالمخالفين - وعلى نقيض ما سبق، كان يقدر لمن يصانعه، في نفاق أو غير

(١) مختصر تاريخ دمشق: ٢٢٥/٦

نفاق، ممن يخالفونه رأياً دون مواجهة أحياناً، فيعفو عنهم وفق هوى فكره،
والمواقف المروية عنه في ذلك كثيرة.



٩. الحجاج وأسرى من الخوارج

أتى الحجاج بأسرى من الخوارج، فأمر بضرب أعناقهم فقدم فيهم شاب فقال:

«والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو». فقال: أفّ لهذه الجيف. ما كان فيهم من يقول مثل هذا؟ وأمسك عن القتل».

وأتى الحجاج بأسرى، فأمر بقتلهم، فقال له رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السنّة خيراً؛ فإن الله تعالى يقول: **(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فِأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ)** [محمد: ٤]

. فهذا قول الله في كتابه.

وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:
وما نقتل الأسرى ولكن نفكّهم ... إذا أثقل الأعناق حمل القلائد
فقال الحجاج: ويحكم! أعجزتم أن تحبروني بما أخبرني هذا المنافق؟ وأمسك
عمن بقي^(١).



(١) العقد الفريد، مرجع سابق: ٤٧/٢.

١٠. الحجاج والشعبي

يُقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي قال للشعبي يوماً: كم عطاءك في السنة؟ فقال الشعبي: ألفين. فقال الحجاج: ويحك! كم عطاؤك؟ فقال الشعبي: ألفان. قال الحجاج: كيف لحت أولاً؟! قال الشعبي: «لحن الأمير فلحنت. فلما أعرب أعربت، وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا». فاستحسن ذلك منه وأجازه^(١).

وعن الشعبي قال: لما قدم الحجاج سألني عن أشياء من العلم، فوجدني بها عارفاً، فجعلني عريفاً على قومي الشعبيين، ومنكباً على جميع همدان، وفرض لي، فلم أزل عنده بأحسن منزلة، حتى كان شأن عبدالرحمن بن الأشعث، فأتاني قراء أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم، فقامت بين الصفيين أذكر الحجاج، وأعييه بأشياء، فبلغني أنه قال: «ألا تعجبون من هذا الخبيث أما لئن أمكنني الله منه لأجعلن الدنيا عليه أضيق من مسكٍ جمل. قال: فما لبثنا أن هُزمنّا، فجئنا إلى بيتي، وأغلقت عليّ، فمكثت تسعة أشهر، فندب الناس لخراسان، فقام قتيبة بن مسلم، فقال: أنا لها، فعقد له على خراسان، فنادى مناديه: من لحق بعسكر قتيبة فهو آمن، فاشترى مولى لي حماراً، وزودني، ثم خرجت، فكنت

(١) وفيات الأعيان: ١٥/٢.

في العسكر، فلم أزل معه حتى أتينا فرغانة؛ فجلس ذات يوم وقد برق؛ فنظرت إليه فقلت: أيها الأمير، عندي علم (ما تريد) فقال: ومن أنت؟ قلت: أعيذك ألا تسأل عن ذلك، فعرف أني ممن يخفي نفسه؛ فدعا بكتاب فقال: اكتب نسخة. قلت: لا تحتاج إلى ذلك، فجعلت أملي عليه وهو ينظر، حتى فرغ من كتاب الفتح. قال: فحملني على بغلة، وأرسل إلي بسرقة من حرير، وكنت عنده في أحسن منزلة، فإني ليلة أتعشى معه، إذا أنا برسول الحجاج بكتاب فيه: إذا نظرت في كتابي هذا، فإن صاحب كتابك عامر الشعبي، فإن فاتك، قطعت يدك على رجلك وعزلتك. قال: فالتفت إلي، وقال: ما عرفتك قبل الساعة، فاذهب حيث شئت من الأرض، فوالله لأحلفن له بكل يمين؛ فقلت: أيها الأمير، إن مثلي لا يخفي، فقال: أنت أعلم. قال: فبعثني إليه وقال: إذا وصلتكم إلى خضراء واسط فقيّدوه، ثم أدخلوه على الحجاج.

فلما دنوت من واسط، استقبلني ابن أبي مسلم، فقال: يا أبا عمرو، إني لأضنُّ بك عن القتل، إذا دخلت على الأمير فقل كذا، وقل كذا، فلما أدخلت عليه ورآني قال: لا مرحباً، ولا أهلاً، جئتني ولست في الشرف من قومك، ولا عريفاً ففعلت وفعلت، ثم خرجت عليّ؟ وأنا ساكت فقال: تكلم. فقلت: أصلح الله الأمير، كل ما قلته حق، ولكننا قد اكتحلنا بعدك السهر، وتحلّسنا الخوف، ولم نكن مع ذلك بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء،

فهذا أوان حقنت لي دمي، واستقبلت بي التوبة. قال: قد فعلت ذلك^(١).

يعني: هو عرض بكلام وما قال باطلاً، فهو نوع من المداراة، وليس من المداهنة، لأن المداراة لا تكون على حساب الحق أو الشرع، فقال له: اكتحلنا بعدك السهر، وتحلسنا الخوف^(٢)، ولم نكن مع ذلك بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، فهذا أوان حقنت لي دمي.



(١) سير أعلام التابعين، ص ١٠١، ١٠٣، وانظر: سير أعلام النبلاء، ٤/٢٩٤-٣١٩، برقم ١١٣، والطبقات الكبرى، ٦/٢٥٩-٢٦٧، برقم ٢٣١٦، وتهذيب الكمال، ١٤/١٨-٤٠، برقم ٣٠٤٢.

(٢) تحلس، واستحلس الخوف بفلان، إذا لم يفارقه الخوف.

١١. الحجاج والبستاني

مما يروى من المواقف الطريفة ما ذكره أبو الحسن محمد بن هلال أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره، فمر ببستاني يسقي ضيعة له، فقال له: كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله! المبيد المثير الفتن، عجل الله له الانتقام، قال له: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، فرأى أن دمه قد طاح، فرفع عصا كانت معه، وقال: أتعرفني، أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي - وأرغى وأزبد وهاج، وأراد أن يضرب رأسه بالعصا. فضحك منه وانصرف.

وكان الحجاج كثيراً ما يسأل القراء، فدخل عليه يوماً رجل فقال له: ما قبل قوله تعالى: (أمن هو قانت آناء الليل). فقال: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، قال: فما سألت أحداً بعدها.

وخطب في يوم الجمعة فأطال الخطبة، فقام إليه رجل فقال: إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرک، فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل فقالوا: إنه مجنون، فقال: إن أقر على نفسه بما ذكرت من خليت سبيله، فقال الرجل: لا والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني^(١).



(١) وفيات الأعيان، مرجع سابق: ٤٠/٢

١٢. الحجاج والإقناع

ومما يروى عن قدرة الحجاج وامتلاكه لمنطق الإقناع، ولو أدى إلى قلب الحقائق، موقفه من قتل عبدالله بن الزبير ابن العوام - رضي الله عنهما - وما كان من شأن التابعي الجليل مالك بن دينار - ؓ - بمقولة تكشف - وإن لم تصرح - عن هذه القدرة التي هي في النهاية نوع من مراوغة الثعالب، إذ إنه: "لما قتل عبدالله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء، فأمر الحجاج الناس، فجمعوا بالمسجد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل مكة: بلغني بكاؤكم وأسفكم واستفظاعكم قتل عبدالله بن الزبير، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها أهلها، فخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانع للعصاة لمنعت آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه، بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباحه كرامته، وأسكنه جنته، فلما عصا أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة، فاذكروا الله يذكركم. ونزل^(١) .

قال مالك بن دينار - رحمه الله - : ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، لبيانه وحسن تخلصه^(٢) .

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/٥١٣ - ٥١٤، وتاريخ دمشق، ١٢/١٢٠

(٢) البيان والتبيين: ٣١١/١

١٣. الحجاج وابن طلحة

لما ولي الحجاج الحرمين بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة، فلم يزل على حاله حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان زائراً له، فخرج إبراهيم معه، فصار لا يترك في بره وجلاله وتعظيمه شيئاً إلا فعله، فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فدخل على عبد الملك، فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والرياسة والديانة والستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة، مع القرابة ووجوب الحق، إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وقد أحضرته بيابك ليسهل عليه أذنك، وتلقاه ببشرك، وتفعل به ما تفعله بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذهبه.

فما كان من عبد الملك إلا أن أكرم وفادة ضيف الحجاج، وقربه من مجلسه قائلاً للحجاج: "ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريبة، يا غلام إنذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل، قربته، حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له يا بن طلحة: إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الأدب والفضل وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدع حاجة من خاص

أمرك وعامه إلا ذكرتها، فقال: يا أمير المؤمنين: إن أولى الأمور أن تفتتح بها الحوائج، وتُرجى بها الزلفى ما كان فيه لله عز وجل رضا، ولحق نبيه محمد -ﷺ- أداء، ولك فيه ولجاعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بدا من ذكرها، ولا يكون البوح بها إلا وأنا خالٍ، فأخطني ترد عليك نصيحتي، قال دون أبي محمد! قال: نعم، فأشار إلى الحجاج فخرج، فلما جاوز الستر قال: قل يا ابن طلحة نصيحتك... ."

ولعل سر تعجب عبد الملك من موقف ابن طلحة إسراره بالنصيحة دون الحجاج، كان مرهصاً، بما لم يتوقع ابن طلحة من عبد الملك، فيما لا يحمد عقباه له آنئذٍ، ولكن ما الذي قاله ابن طلحة مستوجباً ذلك. إنه حين قال عبد الملك: "قل يا ابن طلحة نصيحتك، فقال: الله الله يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعسفه وتعجرفه لبعده عن الحق، وركونه إلى الباطل، فوليته الحرمين، وفيهما من فيهما، وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي المنتسبة الأخيار، أصحاب رسول الله -ﷺ-، وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف، ويقودهم بالعسف، ويحكم فيهم بغير السنة، ويطوهم بطغام أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ثم عن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك! فكيف بك إذا جاثاك محمد -ﷺ- غداً للخصومة في أمته بين يدي الله تعالى؟! أما والله إنك لن تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة، فأبق على نفسك أو دع، فقد قال

رسول الله - ﷺ -: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وقد كان رد فعل عبد الملك على ابن طلحة عنيفاً مدوياً في أول الأمر، له أثره النفسي الرهيب فيه. إذ استوى عبد الملك جالساً، وكان متكئاً، وقال: كذبت لعمر الله، ومننت (المين هو الكذب) ولؤمت فيما جئت به، ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجده فيك، وربما ظن بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد.

فقام ابن طلحة لا يبصر شيئاً على حد قوله، وأرسل وراءه عبد الملك لاحقاً، حين تجاوز الستر، قائلاً للحاجب: احبس هذا، وأدخل أبا محمد، فلبث ابن طلحة فترة خائفاً يترقب ملياً، لا يشك في أنها يتحدثان في أمره هو والحجاج، ثم أذن عبد الملك لابن طلحة بالدخول فدخل، وهنا حدثت مفاجأتان حيال موقفه، إحداهما من الحجاج والأخرى من عبد الملك.

أما الحجاج، فلما كشف الستر لابن طلحة، لقيه الحجاج وهو داخل إلى عبد الملك، والحجاج خارج، فاعتنقه الأخير، وقبل ما بين عينيه، وقال له: إذا جرى الله المتأخين بفضل توصلهما خيراً، فجزاك الله أفضل ما جرى أخاً، ووعدته إن كان الأمر له ليُعْلَيْنَ قدره، وابن طلحة يتعجب ظاناً أنه يهزأ به؛ إذ إن الحجاج أقسم قائلاً له: "أما والله لئن سلمت لك لأَرْفَعَنَّ ناظريك، ولأُعْلِيَنَّ كعبك، وأُتْبِعَنَّ الرجال غبار قدميك، قال: فقلت في نفسي إنه يهزأ بي، ويسخر مني".

وأما عبد الملك بن مروان - وهو مَنْ هو دهاءٌ وحكمةٌ - فقد حدث منه ما لم يكن في حساب ابن طلحة الخائف المتوجس، إذ لما وصل إلى عبد الملك أدناه وأجلسه في مجلسه الأول، ودار بينهما حوار يكشف عن عبر لمن يعتبر، من أخلاق الحاكم والرعية كليهما. نستشف ذلك بدءاً من مخاطبة عبد الملك لابن طلحة بقوله: "يا ابن طلحة هل أعلمت الحجاج بما جرى؟ أو شاركك أحد في نصيحتك؟ فقلت: لا والله، ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً، ولا أوضح يداً من الحجاج، ولو كنت محايياً أحداً بديني لكان إياه، ولكنني آثرت الله عز وجل ورسوله - ﷺ - والمسلمين، فقال: قد علمت أنك آثرت الله عز وجل، ولو آثرت الدنيا لكان لك في الحجاج أمل".

لقد علم عبد الملك بفراصة المؤمن، وحكمته، صدق نية ابن طلحة ودافعه إرضاءً لله ورسوله، في مناصرة الحق، ولو كان على حساب إعجابه وحفظه لدين الحجاج، فما كان من عبد الملك، مرة أخرى، بفراصة الحاكم المحنك سياسياً إلا أن عزل الحجاج عن حكم الحرمين، ليوليه حكم العراقيين المتمردين على الدولة، واللذين يحتاجان حاكماً في قسوة الحجاج وحنكته السياسية.

لكن كيف عرض عبد الملك الأمر وصوره لكل من الحجاج وابن

طلحة؟ !

بعد أن عزل عبد الملك الحجاج لكراهيته ولايته عليهما، وزيادة هذه الكراهية مما أخبره به ابن طلحة، أعلم الخليفة عبد الملك ابن طلحة أنه استنزل الحجاج عن الحجاز بحجة أنه استصغرها عليه، وأنه قد ولاه العراقيين لما هناك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمه أيضاً، أنه (أي ابن طلحة) قد استدعاه (أي عبد الملك) ليطلب منه استزادة الحجاج حكم العراق، ليلزمه بموقفٍ مشرفٍ حيال ابن طلحة بأمر النصيحة، ليظل محافظاً على جميله وحسن ثنائه عليه. وقد أثمر سلوك عبد الملك الذكي الحكيم ما يمكن أن نتلمسه من قول ابن طلحة: "فخرجت من عنده (أي عبد الملك) مع الحجاج، وأكرمني أضعاف إكرامه، واستدلت على مكارم عبد الملك وأخلاقه، واعترافه بالحق، وتيقظه في الأمور ودهائه" (١).



(١) سمط النجوم العوالي: ٢٦٠/٣ بتصرف.

١٤. نجاح الحجاج في المجال الاقتصادي

لم يكن نجاح الحجاج ولاءً للبيت الأموي، مقصوراً على الجانب السياسي فحسب، بل واكبه نجاح اقتصادي، ورؤية شابهها في كليهما كثير من التجاوزات التي اختلف المؤرخون حيالها. ومناشطه في المجال الاقتصادي والزراعي كثيرة.

فمن أخذه بأسباب العمران الاقتصادي والزراعي؛ إنشاءه مدينة واسط، وكان من أسباب إنشائه هذه المدينة "رغبته في إصلاح منطقة المستنقعات بين دجلة والفرات، وهي التي عُرفت باسم البطيحة، وتحويلها إلى أرض منتجة لتنمية موارد الدولة. وقد بدأ بإنشاء مقر لحكومته وسوره بالقصب، ثم منح بعض جهات البطيحة في شكل إقطاعات لرجاله وأعوانه ليعملوا على استصلاحها. فتكاثر العمران من حول واسط وتغير شكل الحياة فيها بفعل هذه الجهود الإصلاحية الإنتاجية".

ونتبين راحة رؤى الحجاج في أمور تزيد من المدخول الاقتصادي؛ حين تبين له "أن الإصلاح الزراعي يحتاج إلى الحيوانات التي قل عددها عندئذٍ، فواجه هذا بأمرين: أحدهما أنه حظر ذبح البقر مدة من الزمن، حتى يمكن الاستفادة من جهدها في الزراعة والحراث، ومن نتائجها من العجول

والأبقار في زيادة الثروة الحيوانية، وثانيهما أنه استورد الجاموس من بلاد الهند للمساعدة في مواجهة الاحتياجات المحلية".

ولم تتخل عن الحجاج شدته وحزمه، وهو يتخذ ما يراه صالحاً من وجهة نظره - حتى في الأمور الاقتصادية - ووصلت به جرأته أنه "كان أول من خالف القواعد الخاصة بالخراج والجزية حيال من دخلوا حديثاً في الإسلام من غير العرب. وذلك أن أهل البلاد الأصليين كانوا يقيمون في القرى للزرع والحرث، فمن اعتنق منهم الإسلام رفعت الجزية عن رأسه، وكان بعد إسلامه يهجر القرية التي كان يعمل زارعاً فيها، ويهرع إلى المدن لكي يلتحق بالجيش الإسلامي ويكتب في سجل العطاء. وبدهي أن هذه الأرض التي كانت تترك ويرحل عنها أصحابها بعد إسلامهم تصبح خاضعة للظروف، فقد يستأجرها الغير، وقد تترك من غير زراعة، وإذا استأجرها الغير، ففي الغالب أن الإيجار يكون أقل من الإيجار القديم"^(١).

ولما رأى الحجاج جراء ذلك قلة موارد الدولة، من الأموال التي تجبى من تلك الأقاليم، بوصفها أثراً لاعتناق أهلها الإسلام؛ "هاله نقص الأموال من خزانة الدولة، ففرض الجزية على المسلمين الجدد، وألزمهم بالعودة إلى قراهم، وأعاد وضع الخراج على الأرض التي أسلم أصحابها كما كان من قبل إسلامهم، وقال لهم حينما أمر بإعادتهم إلى قراهم: أنتم

(١) الحجاج طاغية العرب: ص ٢٨.

علوج وعجم، وقراكم أولى بكم، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها".

وإلى سيرة الحجاج في هذا الجانب وآثاره السلبية، يزيد معارفنا د. محمد حلمي - رحمه الله - بوصفه محققاً تاريخياً، حين يضيف قائلاً: "ولقد كان من أثر شدة الحجاج في جمع الضرائب التي اتجه إلى تثبيتها على الأراضي الزراعية، أن ترك كثير من عمال الفلاحة ميدان الإنتاج الزراعي وهاجروا إلى الأمصار والمدن، فقرر الحجاج إعادة تهجير هؤلاء الفلاحين إلى قراهم، وخشي ألا ينفذ قراره تنفيذاً دقيقاً، فوسم كلا منهم على يده باسم القرية التي حددت له، وهدد من كان يوجد في غير قريته. وكان لهذه الخطوة القاسية جانبها الاجتماعي أيضاً، ذلك أن تجمع هؤلاء الفلاحين في المدن والأمصار، وعجزهم في كثير من الحالات عن الحصول على مورد رزق ثابت حول كثيراً منهم إلى عامل من عوامل الثورة والاضطراب فقضى الحجاج على هذا الخطر"^(١).



(١) الخلافة والدولة في العصر الأموي، مرجع سابق ص ١٥٣.

١٥. الحجاج وأم البنين

للحجاج موقف مع أم البنين بنت عبدالعزيز، أخت الخليفة عمر بن عبدالعزيز، اللذين كانا عبر حكم الحجاج يتوجسان منه رية. والموقف الذي نسوقه تبدأ وقائعه، حين دخل الحجاج ذات يوم على الوليد بن عبد الملك وكان في غلالة رقيقة يلبسها وكان الحجاج يلبس درعاً وكنانة وقوساً عربية، وأطال الجلوس عنده، فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فأسرت له حديثاً ثم انصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد؟ فقال: لا والله، قال: بعثتها إلي ابنة عمي أم البنين بنت عبدالعزيز تقول: ما مجالستك هذا الأعرابي المستلثم (أي اللابس اللأمة وهي السلاح الكامل) في السلاح وأنت في غلالة! فأرسلت إليها: أنه الحجاج، فراعها ذلك وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك، وقد قتل الخلق.

فما كان موقف الحجاج منها؟ ! لقد قال الحجاج للوليد: "دع عنك يا أمير المؤمنين مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فلا تطلعهنَّ على شرك، ولا مكايده عدوك، ولا تطعهن في غير أنفسهن، ولا تشغلهن بأكثر من زيتتهن، وإياك ومشاورتهن في الأمور، فإن رأين أفن، وعزمهن إلى وهن، وأكفف عليهن من أبصارهن بحجبك، ولا

تملك الواحدة منهم من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك، وأكثر الحجاج من ذلك - ثم نهض فخرج .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، إذ دخل الوليد على أم البنين، فأخبرها بما قاله الحجاج في حقها، فقالت: أحب أن تأمره غداً بالتسليم عليّ قال: أفعل، فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد، صرّ إلى أم البنين فسلم عليها، فقال: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: لا بد منه، فمضى الحجاج.

ولما وصل الحجاج إلى أم البنين أرادت أن تكسر كبرياءه في لحظة حساب مرة، إذ حجبتة طويلاً لتذله ثم أذنت له، وتركتة قائماً، ولم تأذن له في الجلوس، ثم قالت: إيه يا حجاج! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث! أما والله لولا علمه أنك شر خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة، وقتل أهل الحجاز، وقتل ابن ذات النطاقين، وأول مولود في الإسلام. فأما ابن الأشعث فقد - والله - والى عليك الهزائم حتى لذت بأمر المؤمنين عبد الملك، فأغاثك بأهل الشام، وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم، وأنجاك كفاحهم. . . وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك، ولا مصغ إلى نصيحتك، وإن كُنَّ لينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك

فما أولاه بالقبول منك، والأخذ عنك، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك.

وظلت أم البنين تكيل إليه المناقص حتى ذكرته بقول الشاعر الذي ينتقص من موقفه مع المرأة الخارجية المسماة غزالة الحرورية، إذ قالت له: "قاتل الله الشاعر - وقد نظر إليك وسان غزالة الحرورية بين كتفيك - حيث يقول:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تفرع من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر!

ثم قالت لجواربها: أخرجنه عنيّ وقد كان تأثير كلام أم البنين على الحجاج عنيفاً، يظهر ذلك من خلال حوار مع الوليد. إذ دخل على الوليد من فوره، فقال: يا أبا محمد، ما كنت فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما سكنت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها، فضحك الوليد حتى فحصى برجليه (ضرب بهما الأرض من كثرة ضحكته)، ثم قال: يا أبا محمد إنها ابنة عبدالعزيز^(١). وهذا كلام له مغزاه الذي يفهمه الحجاج. فما كان أكره على قلب أم البنين وأخيها عمر ابني عبدالعزيز من الحجاج.



(١) وفيات الأعيان، مرجع سابق: ٤٤/٢.

١٦. الحجاج وليلى الأخيلية

أما عن الموقف الآخر من شهيرات العرب المعليات من قدر الحجاج، فهو موقف الشاعرة المشهورة ليلى الأخيلية، إذ طلبت يوماً أن تدخل عليه في وجود صديقه عنيسة بن سعيد بن العاص فقال الحجاج للحاجب: أدخلها، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه. . . فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت، فإذا هي امرأة قد أسنت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها. . . فسألها الحجاج عن نسبها، فأنتسبت له، فقال لها، يا ليلى ما أتى بك؟ قالت: أخلاف النجوم^(١)، وقلة الغيوم، وقلب البرد^(٢) وشدة الجهد، وكنت لنا الرّفد فقال لها: صفى لنا الفجاج^(٣)، فقالت: الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة^(٤)، والمبرك^(٥) معتلّ، وذو العيال مختلّ، والهالك للقلّ، والناس مستتون، ورحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة، مبلطة^(٦)، لم تدع لنا

(١) أخلاف النجوم تريد به امتناع المطر

(٢) يعني شدته

(٣) الفجاج واحده فج وهو كل سعة بين نشازين من الأرض

(٤) مقشعرة أي متقبضة من المحل

(٥) بالأصل: والمبارك والمثبت "والجليس الصالح"

(٦) والمبلطة: المقفرة يعني أن الناس تلتزق فيها بالبلاط والبلاط: الأرض المستوية

هبعاً ولا ربعاً، ولا عافطة ولا نافطة^(١)، أذهبت الأموال، ومزقت الرجال، وأهلكت العيال.

وأرادت ليلي الأخيلية أن تتقرب بشعرها إلى قلب الحجاج مادحة إياه، فقالت: "إني قلت في الأمير قولاً، قال: هاتي، فأنشأت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك، إنها ال	أمنيا بكف الله حيث تراها
أحجاج لا تعطي العصاة مُناهم	ولا الله يعطي للعصاة منها
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة	تتبع أقصى - دائها فشفاه
شفاه من الداء العضال الذي بها	غلام إذا هز القناة سقاها
سقاها فرواًها بشرب سجالة	دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رر ^(٢) كتيبة	أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية	بأيدي رجال يجلبون صراها ^(٣)
فما ولد الأكار والعون مثله	بحر ولا أرض يحف ثراها

فلما قالت هذا البيت قال الحجاج: قاتلها الله! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها، ثم ألفت إليها فقال: حسبك، قالت: إني قلت أكثر من هذا، قال: حسبك ويحك حسبك، ثم قال: يا غلام أذهب بها إلى فلان

(١) في بعض الطبعات: حافظة ولا نافطة

(٢) الرز: الصوت تسمعه من بعيد

(٣) الصرى: بقية اللبن والصرى: اللبن يبقى فيتغير طعمه

حجاج أنت الذي ما فوقه
حجاج أنت شهاب الحرب إن

أحد إلا الخليفة والمستغفر الصمدُ
وأنت للناس نور في الدُّجاء يقد

لفتحــــــــــــــــــــت(١)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال أتدرون من هذه قالوا لا والله أيها الأمير إلا أنا لم نر قط أفصح لسانا ولا أحسن محاوراة ولا أملح وجها ولا أرصن شعرا منها فقال هذه ليل الأخيلىة التي ماتت توبة الخفاجى من حها(٢) .



(١) أي هاجت بعد سكون
(٢) الأمالى فى لغة العرب: ٨٧/١.

١٧. فتوحات الحجاج

بعد إخماد الفتنة، عاود الحجاج سياسة الفتح، وأرسل الجيوش المتتابعة، واختار لها القادة الأكفاء، مثل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولاه الحجاج خراسان سنة (٨٥هـ = ٧٠٤م)، وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد؛ فأبلى بلاء حسناً، ونجح في فتح ما وراء النهر وانتشر الإسلام في هذه المناطق وأصبح كثير من مدنها مراكز هامة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند. وهنا نذكر أن مساحة فتوح قتيبة بن مسلم الباهلي وحده، تبلغ أربعين بالمائة من مساحة الاتحاد السوفيتي السابق وثلاثاً وثلاثين بالمائة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر. وأن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن الاتحاد السوفيتي والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم، ويعتزون بالإسلام ديناً. هذا فضلاً عن فتوحات باقي قادة الحجاج، وباقي ولاية بني أمية.

وبعث الحجاج بابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند، وكان شاباً عمره ١٧ سنة، ولكنه كان قائداً عظيماً موفوراً القدرة، نجح خلال فترة قصيرة لا تزيد عن خمس سنوات (٨٩-٩٥هـ = ٧٠٧-٧١٣م) في أن يفتح مدن وادي السند (باكستان حالياً)، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في فتح

قنوج أعظم إمارات الهند التي كانت تمتد بين السند والبنغال فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضي، وكتب إليه أن «سر فأنت أمير ما افتتحته»، وكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان يقول له: «أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها.»

وقال ابن كثير في تاريخه (٩/١٠٤) عن الجهاد في عهدي بني أمية : «فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها. وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتألت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه. وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شزيمة عظيمة ينصر الله بهم دينه. فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفا وأموالاً كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده، بحيث أن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه. ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين، ولم يبق إلا أن يلتقي مع ملكها، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر... ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق

وغيرهم». ولو عاش الحجاج لأكمل قتيبة فتح الصين كلها، ولأكمل ابن

القاسم فتح الهند. فرحمة الله عليك يا أبا محمد.



١٨. إصلاحات الحجاج

في الفترة التي قضاها الحجاج في ولايته على العراق قام بجهود إصلاحية عظيمة، ولم تشغله الفترة الأولى من ولايته عن القيام بها، وشملت هذه الإصلاحات النواحي الاجتماعية والصحية والإدارية وغيرها؛ فأمر بعدم النوح على الموتى في البيوت، وبقتل الكلاب الضالة، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة، ومنع بيع الخمر، وأمر بإهراق ما يوجد منها، وعندما قدم إلى العراق لم يكن لأنهاره جسور فأمر ببنائها، وأنشأ عدة صهاريج بالقرب من البصرة لتخزين مياه الأمطار وتجميعها لتوفير مياه الشرب لأهل المواسم والقوافل، وكان يأمر بحفر الآبار في المناطق المقطوعة لتوفير مياه الشرب للمسافرين. ومن أعماله الكبيرة بناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، واختار لها مكانا مناسباً، وشرع في بنائها سنة (٨٣هـ - ٧٠٢ م)، واستغرق بناؤها ثلاث سنوات، واتخذها مقراً لحكمه.

وكان الحجاج يدقق في اختيار ولاته وعماله، ويختارهم من ذوي القدرة والكفاءة، ويراقب أعمالهم، ويمنع تجاوزاتهم على الناس، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلي والضرب على أيدي اللصوص

وقطاع الطرق.

ويذكر التاريخ للحجاج أنه ساعد في تعريب الدواوين، وفي الإصلاح النقدي للعملة، وضبط معيارها، وإصلاح حال الزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات، وإحياء الأرض الزراعية، واهتم بالفلاحين، وأقرضهم، ووفر لهم الحيوانات التي تقوم بمهمة الحرث؛ وذلك ليعينهم على الاستمرار في الزراعة.

ومن أجل الأعمال التي تنسب إلى الحجاج اهتمامه بنقط حروف المصحف وإعجابه بوضع علامات الإعراب على كلماته، وذلك بعد أن انتشر التصحيف؛ فقام «نصر بن عاصم» بهذه المهمة العظيمة، ونُسب إليه تجزئة القرآن، ووضع إشارات تدل على نصف القرآن وثلثه وربعه وخمسه، ورغب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار^(١).



(١) الحجاج طاعية العرب: ص ١١٢-١١٣.

١٩. الحجاج والحسن البصري

للحسن البصري مواقف الشجاعة الباسلة في وجه الحجاج، تشهد له بعلو كعبه، وسبقه في هذا الأمر، فقد تصدّى لطغيانه، وجهر بين العامة بسوء أفعاله، وصدع في وجهه بكلمة الحق والصدق. ولا أدلّ على ذلك من موقفه القوي الشجاع حين بنى الحجاج بناءً في واسط - وهي مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة -، ونادى الحجاج الناس أن يخرجوا لينظروا إلى روعة البناء، فسارع الحسن البصري وخرج في وسط الجموع الغفيرة وهم يطوفون بهذه البناية، فوقف فيهم خطيباً يعظ الناس ويقلل الدنيا في أعينهم، فقال: لقد نظرنا فيما ابتنى أخبث الأخبثين، فوجدنا أنّ فرعون شيّد أعظم مما شيّد، وبنى أعلى مما بنى، ثم أهلك الله فرعون، وأتى على ما بنى وشيّد، ليت الحجاج يعلم أنّ أهل السماء قد مقتوه، وأن أهل الأرض قد غرّوه، فلما سمع الحجاج مقالة الحسن البصري امتقع لونه، وخرس لسانه، وغاص في جلده، ولم يتكلّم ببنت شفة، غير أنه اقتصر على قوله:

حسبك يا أبا سعيد... حسبك.

فرد عليه الحسن البصري بثبات جنان، ورباطة جأش: لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم لبيّنته للناس، ولا يكتُمونه.

ولم يملك الحجاج أن يفعل للحسن شيئاً وانصرف، وفي اليوم التالي عاتب جنده وحراسه، ووبّخهم، وعَنّفهم قائلاً لهم: تَبّاً لكم وسحقاً! يقوم

عبد من عبيد أهل البصرة، ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء.

واستدعي الحسن لينكل به الحجاج في وسط حرسه وجنوده، وجاء الحسن، ولما رأى النّطع والسيّف والسيّاف دعا ربه أن يكفيه شرّ الحجاج، وأن يجعل نقمته برداً وسلاماً، كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم الخليل عليه السلام، فدخل الحسن على الحجاج، ولم يعبأ بما رأى، ولم يهزّ منظر السيّف والنّطع والسيّاف، بل كان في عزّة المؤمن، ووقار الداعي إلى الله، فهابه الحجاج، وأقبل عليه يرحب به، ويدنيه من مجلسه، ويوسّع له، هذا ما حدث في وسط دهشة واستغراب الحرس والجنود.

وظفّق الحجاج يسأل الحسن عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بثقة العالم الرباني، لا يتتّع، ولا يهتّر، حتى انفضّ المجلس، وأحسن الحجاج للحسن، وطيبه (١).

قال ميمون بن مهران: بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به، فلما قام بين يديه قال: يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن.

وقال أيوب السخيتاني: إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه، وقد ذكر له معه مناظرات، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك، وإنما خرج معهم مكرها

(١) سير أعلام التابعين، ص ١٣-١٥. وانظر: سير أعلام النبلاء، ٥٦٣/٤-٥٨٨، والطبقات الكبرى، ١٥٧/٧-١٧٧، وتهذيب الكمال، ١٠٢/٦-١٢٥.

كما قدمنا، وكان الحسن يقول: إنما هو نعمة فلا تقابل نعمة الله بالسيف،
وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع^(١).



(١) البداية والنهاية، مرجع سابق: ١٥٥/٩.

٢٠. الحجاج وسعيد بن المسيّب

الحجاج كان لا يقف أمامه أحد لظلمه وجبروته، فقد قيل لسعيد بن المسيّب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يهيجك، ولا يؤذيك؟ ! قال سعيد: لا أدري، غير أن صلّي ذات يوم مع أبيه صلاة، فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفّاً من حصباء، فحصبته بها. قال الحجاج: فما زلت بعد ذلك أحسن الصلاة.

ولما عقد عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان فبايع الناس إلا سعيد بن المسيّب، فضربه هشام [أمير المدينة وقتذاك] ستين سوطاً، وطاف به في تبان من شعر حتى بلغ به رأس الثنية، فلما كروا به قال سعيد: أين تكرّون بي؟ قالوا: إلى السجن. قال سعيد: والله لولا أنني ظننته الصلب ما لبست هذا التبان أبداً. (أي حتى لا تكشف عورته إذا قتل) فردوه إلى السجن فحبسه. وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع بسعيد وقال: سعيد كان والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه، وإننا لنعلم ما عنده خلاف (١).

مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره: فروى أبو بكر بن أبي خيثمة، عن

(١) سير أعلام التابعين، ص ٥٥، ٥٦، وانظر: سير أعلام النبلاء، ٢١٧/٤-٢٤٦، برقم ٨٨، والطبقات الكبرى، ١٠٩-٨٩/٥، برقم ٦٨٣، وتهذيب الكمال، ١١/٦٦-٧٥، برقم ٢٣٥٨.

يحیی بن آیوب، عن عبد الله بن كثير ابن أخي إسماعيل بن جعفر المديني ما معناه: أن الحجّاج بن يوسف صلى مرة بجنب سعيد بن المسيب - وذلك قبل أن يلي شيئاً - فجعل يرفع قبل الامام ويقع قبله في السجود، فلما سلم أخذ سعيد بطرف رداءه - وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة - فما زال الحجّاج ينزعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره، ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلي هذه الصلاة، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك.

فلم يرد عليه ثم مضى الحجّاج إلى الحج، ثم رجع فعاد إلى الشام، ثم جاء نائباً على الحجاز.

فلما قُتل ابن الزبير كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها، فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب، فقصده الحجّاج فخشي الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم! قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك.

ثم قام ومضى^(١).



(١) البداية والنهاية: ١٣٩/٩.

٢١. موقف الحجاج مع سعيد بن جبير

نَجَّى الله سعيد بن جبير من هذه الورطة، فكان ممن فرّ واختفى عن أعين الحجاج عشر سنوات، ولكن قدر الله لا بدّ نافذ، فعندما تولّى خالد بن عبد الله القسري ولاية مكة من قبل الحجاج، وكان سيّئ السيرة، فخاف أصحاب سعيد على سعيد، فألحّوا عليه بالفرار والخروج من مكة، ولكن سعيداً أبى الخروج، وقال لأصحابه: والله لقد استحييت من الله مما أفرّ، ولا مفرّ من قدر الله.

وكان والي المدينة من قبل الحجاج عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود، فتعلّم منه خالد بن عبد الله القسري، فعين من عنده من مكة: سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وعمرو بن دينار، وطلق بن حبيب، فبعث خالد بهؤلاء إلى الحجاج، ثم عفا عن عطاء، وعمرو بن دينار؛ لأنهما من أهل مكة، وبعث بأولئك الثلاثة، فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل، وأما مجاهد فحبس، فهازال في السجن حتى مات الحجاج، وأما سعيد بن جبير ذلك العابد القانت التقى الورع الطاهر، وصل مدينة واسط وهو مقيّد في الأغلال، فأدخلوه على الحجاج، وهو ثابت القلب، هادئ النفس، رابط الجأش، قوي الحجاج، فصيح اللسان، لم يتزعزع، ولم يهن، راسخ رسوخ الجبال، ودار بينهما حوار طويل يكشف عن

عظمة الرجل، وحسن توكله على ربه، وقوة إيمانه، وصبره، ويقينه، رجل فريد لم تلن له قناة، ولم يفت في عضده تهديد أو وعيد، فأقبل على عدوه بما يسوؤه وهو في قبضته، والسيف مصلت على رقبتة، فلم يعبأ به، وهو يعلم أنه مقتول لا محالة^(١).

وعن الحسن قال: لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير، قال: أنت الشقي ابن كسير؟ قال: بل أنا سعيد بن جبير، قال: بل أنت الشقي ابن كسير، قال: كانت أمي أعرف باسمي منك، قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني النبي ﷺ، قال: نعم، قال: سيد ولد آدم؟ النبي المصطفى خير من بقي، وخير من مضى، قال: فما تقول في أبي بكر؟ قال: الصديق؛ خليفة الله، مضى حميداً، وعاش سعيداً، مضى على منهاج نبيه -ﷺ- لم يغير، ولم يبدل، قال: فما تقول في عمر؟ قال: عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله، مضى حميداً على منهاج صاحبيه، لم يغير، ولم يبدل، قال: ما تقول في عثمان؟ قال: المقتول ظمأً، المجهّز جيش العسرة، الحافر بئر رومة، المشتري بيته في الجنة، صهر رسول الله -ﷺ- على ابنتيه، زوجة النبي -ﷺ- بوحى من السماء، قال: فما تقول في علي؟ قال: ابن عم رسول الله -ﷺ-، وأول من أسلم؛ زوج فاطمة، وأبو الحسن والحسين، قال: فما تقول في معاوية؟ قال: أنت أعلم ونفسك، قال: بت بعلمك، قال: إذا يسوؤك ولا يسرك، قال: بت بعلمك،

(١) أبراج الزجاج في سيرة الحجاج: ١٢١.

قال: اعفني، قال: لا عفا الله عني إن أعفيتك، قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله - تعالى -، ترى من نفسك أموراً تريد بها الهيبة، وهي تقحمك الهلكة، وسترد غداً فتعلم، قال: أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك، ولا أقتلها أحداً بعدك، قال: إذا تفسد عليّ دنيائي، وأفسد عليك آخرتك، قال: يا غلام، السيف والنطع، قال: فلما وليّ ضحك، قال: أليس قد بلغني أنك لم تضحك؟ قال: وقد كان ذلك، قال: فما أضحكك عند القتل؟ قال: من جرأتك على الله، ومن حلم الله عنك، قال: يا غلام اقتله، فاستقبل القبله وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فصرف وجهه عن القبله، قال: ﴿فَأَيُّنَا تُوَلُّوا فَشَمَّ وَجْهُهُ اللَّهُ﴾، قال: اضرب به الأرض، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، قال: اذبح عدو الله، فما أنزعه آيات القرآن منذ اليوم.

وقبل أن ينزل السيف على رقبة سعيد دعا ربه قائلاً: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي^(١).

وسقط رأس سعيد على الأرض، الرأس التي كانت تحوي علوماً كثيرة، وتضم تفسير كلام رب العالمين، سقطت على الأرض، وذكر أهل التاريخ أن رأسه هللت ثلاث مرات: لا إله إلا الله، يفصح في الأوليين، ولم

(١) شذرات الذهب (٣٨٦/١) .

يفصح في الثالثة.

ومات سعيد الإنسان والجسد، ولكن لم تمت ذكراه، ولم يمت اسمه وعلمه وفقهه، ومات أيضاً الحجاج بعده بقليل شرّ ميتة، فاشتدّت عليه آلام المرض، وغصص الموت، فكان يهبّ مذعوراً وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير، ويكرّرها، حتى أهلكه الله، وخلّص العباد والبلاد من شرّه وطغيانه، ورؤي الحجاج في المنام، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني الله بكل امرئ قتلة واحدة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة^(١).



(١) سير أعلام التابعين، ص ٧٠-٧٢. انظر: المراجع السابقة.

٢٢. مواقفه مع محمد ابن الحنفية

عن الحسن بن علي بن محمد ابن الحنفية عن أبيه قال: لما صار محمد بن علي إلى الشعب سنة اثنتين وسبعين، وابن الزبير لم يقتل، والحجاج محاصره، أرسل إليه أن يبايع لعبد الملك، فقال ابن الحنفية: قد عرفت مقامي بمكة، وشخوصي إلى الطائف وإلى الشام، كل هذا إباءً مني أن أبايع ابن الزبير أو عبد الملك، حتى يجتمع الناس على أحدهما، وأنا رجل ليس عندي خلاف، لما رأيت الناس اختلفوا اعتزلتهم حتى يجتمعوا، فأويت إلى أعظم بلاد الله حرمة، يأمن فيه الطير، فأساء ابن الزبير جوارري، فتحولت إلى الشام، فكره عبد الملك قربي، فتحوّلت إلى الحرم، فإن يقتل ابن الزبير، ويجتمع الناس على عبد الملك أبايعك، فأبى الحجاج أن يرضى بذلك منه حتى يبايع لعبد الملك، فأبى ذلك ابن الحنفية، وأبى الحجاج أن يقرّه على ذلك، فلم يزل محمد يدافعه حتى قتل ابن الزبير.

فلما اجتمع الناس على عبد الملك، وبايع ابن عمر، قال ابن عمر لابن الحنفية: ما بقي شيء فبايع، فكتب ابن الحنفية إلى عبد الملك:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من محمد بن علي أما بعد، فإني لما رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم، فلما أفضى هذا الأمر

إليك، وبايعك الناس كنت كرجل منهم، أدخل في صالح ما دخلوا فيه، فقد بايعتك، وبايعت الحجاج لك، وبعثت إليك ببيعتي، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك، ونحن نحب أن تؤمّننا، وتعطينا ميثاقاً على الوفاء، فإن الغدر لا خير فيه، فإن أبيت فإن أرض الله واسعة.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب قال قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع: ما لك عليه سبيل، ولو أراد فتقاً لقدر عليه، ولقد سلّم وبايع، فنرى أن تكتب إليه بالعهد والميثاق بالأمان له، والعهد لأصحابه. ففعل فكتب إليه عبد الملك: إنك عندنا محمود، أنت أحب وأقرب بنا رحماً من ابن الزبير، فلك العهد والميثاق وذمة رسوله أن لا تهاج، ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، ارجع إلى بلدك، واذهب حيث شئت، ولست أدع صلتك وعونك ما حييت، وكتب إلى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه، فرجع ابن الحنفية إلى المدينة .

وعن زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: وفدت مع أبان بن عثمان على عبد الملك بن مروان وعنده ابن الحنفية، فدعا عبد الملك بسيف النبي - ﷺ -، فأتي به، ودعا بصيقل فنظر إليه فقال: ما رأيت حديدة قط أجود منها. قال عبد الملك: ولا والله ما أرى الناس مثل صاحبها، يا محمد هب لي هذا السيف، فقال محمد: أين رأيت أحقّ به فليأخذه. قال عبد الملك: إن كان لك قرابة، فلكلّ قرابة وحق، قال: فأعطاه محمد عبد الملك،

وقال: يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الحجاج وهو عنده - قد آذاني، واستخفّ بحقي، ولو كانت خمسة دراهم أرسل إليّ فيها، فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه. فلما ولّى محمد، قال عبد الملك للحجاج: أدركه فسُلّ سخيمته. فأدركه فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني إليك لأسلّ سخيمتك، ولا مرحباً بشيء ساءك. فقال محمد. ويحك يا حجاج، اتق الله، واحذر الله، ما من صباح يصبحه العباد إلا لله في كل عبد من عباده ثلاثمائة وستون لحظة، إن أخذ أخذ بمقدرة، وإن عفا عفا بحلم، فاحذر الله. فقال له الحجاج: لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك، فقال له محمد: وتفعل؟ قال له الحجاج: نعم. قال: فإني أسألك صَرم الدهر. قال فذكر الحجاج ذلك لعبد الملك، فأرسل عبد الملك إلى رأس الجالوت، فذكر له الذي قال محمد، وقال: إن رجلاً منا ذكر حديثاً ما سمعناه إلا منه. وأخبره بقول محمد، فقال رأس الجالوت: ما خرجت هذه الكلمة إلا من بيت نبوة.

وعن إبراهيم أن الحجاج أراد أن يضع رجله على المقام، فزجره ابن الحنفية ونهاه (١).



(١) سير أعلام التابعين، ص ٢٢٤، ٢٢٧، وانظر: سير أعلام النبلاء، ١١٠/٤-١٢٨، برقم ٣٦، والطبقات الكبرى، ٨٧/٥-٦٧، برقم ٦٨٠، وتهذيب الكمال، ١٤٧/٢٦-١٥٢، برقم ٥٤٨٤، وحلية الأولياء، ٢٠٤/٣-٢١٠، برقم ٢٣٤.

٢٣. شقيق بن سلمة يدعو على الحجاج

عن عاصم قال: ما رأيت أبا وائل شقيق بن سلمة ملتفتاً في صلاة، ولا في غيرها، ولا سمعته يسب دابة قط، إلا أنه ذكر الحجاج يوماً فقال: اللهم أطعم الحجاج من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع. ثم تداركها، فقال: إن كان ذاك أحب إليك، فقلت: وتستثني في الحجاج؟ فقال: نعتها ذنباً.

وعن الزبرقان قال: كنت عند أبي وائل، فجعلت أسب الحجاج وأذكر مساوئه، فقال: لا تسبه، وما يدريك لعله قال: اللهم اغفر لي، فغفر له.

وعن ابن عون قال: ذهب بي رجل إلى أبي وائل فقال: يا أبا وائل أي شيء تشهد على الحجاج؟ قال: أتأمرني أن أحكم على الله؟

وعن عاصم عن أبي وائل قال: أرسل إليّ الحجاج فأتيته فقال: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل إليّ الأمير إلا وقد عرف اسمي. قال: متى هبطت هذا البلد؟ قلت: ليالي هبطه أهله. قال: كأين تقرأ من القرآن؟ قال: قلت: أقرأ منه ما إن اتبعته كفاني، قال: إنا نريد أن نستعملك على بعض عملنا. قال: قلت: على أي عمل الأمير؟ قال: السلسلة. قال: قلت: إن السلسلة لا يصلحها إلا رجال يقومون عليها، ويعملون عليها، فإن تستعن بي تستعن بشيخ أخرج ضعيف يخاف أعوان السوء، وإن يعفني الأمير فهو أحب إلي، وإن يقحمني الأمير أقتحم، وإيم الله، إني لأتعار من الليل فأذكر الأمير فما

يأتيني النوم حتى أصبح، ولست للأمير على عمل، فكيف إذا كنت للأمير على عمل؟ وايم الله، ما أعلم الناس هابوا أميراً قط هيبتهم إياك أيها الأمير. قال: فأعجبه ما قلت. قال: أعد عليّ، فأعدت عليه فقال: أما قولك: إن يعفني الأمير فهو أحب إليّ، وإن يُقحمني أقتحم، فإننا إن لا نجد غيرك نقحمك، وإن نجد غيرك لا نقحمك، وأما قولك: إن الناس لم يهابوا أميراً قط هيبتهم إياي، فإني والله ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجروء على دم مني، ولقد ركبت أموراً كان هابها الناس، فأخرج لي بها. انطلق يرحمك الله. قال شقيق: فخرجت من عنده وعدلت من الطريق عمداً كأني لا أنظر.

قال الحجاج: أرشدوا الشيخ، أرشدوا الشيخ. حتى جاء إنسان فأخذ بيدي، فأخرجني، فلم أعد إليه بعد^(١).



(١) سير أعلام التابعين، ص ٣١٧، ٣٢٠، وانظر: سير أعلام النبلاء، ١٦١/٤-١٦٦، برقم ٥٩، والطبقات الكبرى، ١٥٤/٦-١٥٩، برقم ١٩٨٤، وتهذيب الكمال، ٥٤٨/١٢-٥٥٤، برقم ٢٧٦٧، وحلية الأولياء، ١٠٦/٤-١٢٠، برقم ٢٥٣.

٢٤. مع سالم بن عبد الله بن عمر

عن عطاء بن السائب، قال: دفع الحجاج إلى سالم بن عبد الله سيفاً، وأمره بقتل رجل، فقال سالم للرجل: أمسلم أنت؟ قال: نعم، امض لما أمرت به. قال: فصليت اليوم صلاة الصبح؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى الحجاج، فرمى إليه السيف، وقال: إنه ذكر أنه مسلم، وأنه قد صلى صلاة الصبح، فهو في ذمة الله، وإن رسول الله - ﷺ - قال: «من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله»^(١). قال الحجاج: لسنا نقتله على صلاة الصبح، ولكنه ممن أعان على قتل عثمان، فقال سالم: هاهنا من هو أولى بعثمان مني، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال: ما صنع سالم؟ قالوا: صنع كذا وكذا، فقال ابن عمر: مكيس^(٢) مكيس^(٣)].



(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، ٣٨١/٨، برقم ٨١٨٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم ٦٣٤٥.

(٢) الكئيس: بوزن الكيل ضد الحمق، والرجل كئيسٌ مُكئِسٌ: أي ظريف. [مختار الصحاح، ٥٨٦].

(٣) سير أعلام التابعين، ص ٣٨١. وانظر: سير أعلام النبلاء، ٤/٤٥٧-٤٦٦، برقم ١٧٦، وتهذيب الكمال، ١٠/١٤٥-١٥٤، برقم ٢١٤٩، وحلية الأولياء، ٢/٢٢١-٢٢٦، برقم ١٧٧.

٢٥. الحجاج وشيخ كبير

قال الأصمعي: سمعت عمي يقول: بلغني أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخا خارجا من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة، فقال: بشر حال، قتل ابن حواري رسول الله - ﷺ -، فقال الحجاج: ومن قتله؟ فقال: الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته، من قليل المراقبة لله.

فغضب الحجاج غضبا شديدا ثم قال: أيها الشيخ! أتعرف الحجاج إذا رأيته؟ قال: نعم! فلا عرفه الله خيرا ولا وقاه ضرا.

فكشف الحجاج عن لثامه وقال: ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة.

فلما تحقق الشيخ الجد قال: والله إن هذا هو العجب يا حجاج، لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة، أنا العباس بن أبي داود، أصرع كل يوم خمس مرات، فقال الحجاج: انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه^(١).



(١) البداية والنهاية، مرجع سابق: ١٤١/٩.

٢٦. الحجّاج وعزة الأعرابي

قال سعيد بن أبي عروبة: حجّ الحجّاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأُتي بغدائه فقال لحاجبه: انظر ما يأكل معي، فذهب فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال: أجب الأمير، فقام فلما دخل على الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغد معي، فقال: إنه دعاني من هو خير منك، قال: ومن؟ قال الله دعاني إلى الصوم فأجبتّه، قال: في هذا الحر الشديد؟ قال: نعم صمت ليوم هو أشد حرا منه، قال: فأفطر وصم غدا، قال: إن ضمنت لي البقاء لغد.

قال: ليس ذلك لي، قال: فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إن طعامنا طعام طيب، قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، إنما طيبته العافية (١).



(١) البداية (١٢/٥١٨).

٢٧. بين حطيط والحجاج

قال جعفر بن أبي المغيرة: كان حطيط صواماً قواماً، يختم في كل يوم وليلة ختمة، ويخرج من البصرة ماشياً حافياً إلى مكة في كل سنة، فوجه الحجاج في طلبه فأخذ، فأتي به الحجاج فقال له: إيهأ، قال: قل، فإني قد عاهدت الله إن سئلت لأصدقن، ولئن ابتليت لأصبرن، ولئن عوفيت لأشكرن، ولأحمدن الله على ذلك.

قال: ما تقول فيّ؟

قال: أنت عدو الله، تقتل على الظنة.

قال: فما قولك في أمير المؤمنين؟

قال: أنت شررة من شرره، وهو أعظم جرماً منك. قال خذوا ففطعوا عليه العذاب، ففعلوا، فلم يقل حساً ولا بساً، فأتوه فأخبروه، فأتوه فأخبروه، فأمروا بالقصب فشقق ثم شد عليه، وصب عليه الخل والملح، وجعل يستل قصبة قصبة، فلم يقل حساً ولا بساً، فأتوه فأخبروه قال: أخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه. قال جعفر: فأنا رأيته حين أخرج، فأتاه صاحب له

فقال: لك حاجة؟ قال: شربة من ماء، فأتاه بقاء فشرب ثم ضربت عنقه.

وكان ابن ثمان عشرة سنة^(١).



(١) مختصر تاريخ دمشق، مرجع سابق: ٢٢٥/٦.

٢٨. من خطبه في المواعظ

مما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ: "الرجل وكلكم ذاك الرجل، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وكفها بزمها عن معاصي الله، رحم الله امرئ رد نفسه، امرئ اتهم نفسه، امرئ اتخذ نفسه عدوة امرئ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره، امرئ نظر إلى ميزانه، امرئ نظر إلى حسابه، امرئ وزن عمله، امرئ فكر فيما يقرأ غدا في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عند قلبه زاجرا، وعند همه آمرا، امرئ أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جملة، فان قاده إلى طاعة الله تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كف، امرئ عقل عن الله أمره، امرئ فاق واستفاق، وأبغض المعاصي والنفاق، وكان إلى ما عند الله بالأشواق.

فما زال يقول امرئ امرئ، حتى بكى مالك بن دينار^(١).

وقال المدائني: عن عوانة بن الحكم قال: قال الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: "أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء.

(١) انظر العقد الفريد ٢ / ١٥٣، البداية والنهاية : ١٤٣/٩.

فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل^(١).

وقال الأصمعي وغيره: كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد، فقال للرسول: أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده؟ قال: نعم! فكتب الحجاج إلى عبد الملك: أما أمس فأجل، وأما اليوم فعمل، وأما غدا فأمل.

قال قتبية بن مسلم: خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر فما زال يقول: إنه بيت الوحدة وبيت الغربة حتى بكى وأبكى من حوله، ثم قال: سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول: سمعت مروان يقول في خطبته: خطبنا عثمان بن عفان فقال في خطبته: ما نظر رسول الله - ﷺ - إلى قبر وذكره إلا بكى.

وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمه، قال: سمعت الحسن البصري يقول: وقذنتي كلمة سمعتها من الحجاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة^(٢).



(١) انظر مروج الذهب ٣ / ١٨٥ . البداية والنهاية (٥٢٢/١٢) .

(٢) المصدر نفسه (٥٢٢/١٢) .

٢٩. الحجاج وقاتل الحسين

قال شريك القاضي عن عبد الملك بن عمير، قال، قال الحجاج يوماً:
من كان له بلاء أعطيناه على قدره، فقام رجل فقال: أعطني فأني قتلت
الحسين، فقال: وكيف قتلت؟ قال: دسرت به بالرمح دسراً، وهبته بالسيف
هبراً، وما أشركت معي في قتله أحداً.

فقال: اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو في موضع واحد، ولم يعطه
شيئاً^(١).

وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجاج نصب العداء لأهل البيت غير
صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على
عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا
على الوصول إليه .



(١) البداية والنهاية: ١٤٤/٩، تاريخ الإسلام: ٣١٩/٦، الحجاج بن يوسف المفترى عليه
ص: ٣٩٩.

٣٠. صدق الله وكذب الشاعر

قال الهيثم بن عدي: جاء رجل إلى الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري، فقال الحجاج، أما سمعت قول الشاعر:

حنانيك من تجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الحرب
ولرب مأخوذ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب؟

فقال الرجل: أيها الأمير! إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا، قال: وما قال؟ قال (**قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ**) [يوسف: ٧٨ - ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان وابن داره، واعطه عطاءه، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر^(١).

فهذه القصة تدل بوضوح على أن الشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها، حتى على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور

(١) البداية والنهاية (١٢/٥٢٣).

الأولى: لم يكن ليَجْرَوْ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها، ولو كان

هو الحجاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت^(١).



(١) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي ص ٢٢.

٣١. الحجاج وأربعة وعشرين امرأة

قال الهيثم بن عدي عن ابن عباس: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن
ابعث إلي برأس أسلم بن عبد البكري، لما بلغني عنه، فأحضره الحجاج
فقال: أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى: (يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنْبِاءٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) [الحجرات: ٦] وما بلغه باطل، وإني
أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري وهن بالباب، فأمر الحجاج
باحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه أنا عمته،
وهذه أنا أخته، وهذه أنا زوجته، وهذه أنا بنته، وتقدمت إليه جارية فوق
الشان ودون العشرة، فقال لها الحجاج: من أنت؟ فقالت: أنا ابنته، ثم
قالت: أصلح الله الأمير، وجئت على ركبتيها وقالت: -

أحجاج لم تشهد مقام بناته	وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج كم تقتل به إن قتلته	ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه	علينا فمهلا إن تزدنا تضعصعا
أحجاج إما أن تجود بنعمة	علينا وإما أن تقتلنا معا

قال: فبكى الحجاج وقال: «والله لا أعنت عليك ولا زدتك

تضعضعا»، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل، وبما قالت ابنته هذه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدتها في كل وقت^(١).



(١) البداية والنهاية: ٩/١٤٤.

٣٢. ساء أدبه على الحجاج

قيل إن الحجاج خطب يوما فقال: أيها الناس الصبر عن محارم الله
أيسر من الصبر على عذاب الله.

فقام إليه رجل فقال له:

«ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك وأقل حياءك، تفعل ما تفعل وتقول
مثل هذا الكلام؟ خبث وضل سعيك»، فقال للحرس: خذوه، فلما فرغ من
خطبته قال له: «ما الذي جرأك علي؟ فقال: «ويحك يا حجاج، أنت تجترئ
على الله ولا اجترئ أنا عليك، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ
على الله رب العالمين، فقال: خلوا سبيله، فأطلق^(١).



(١) البداية والنهاية، مرجع سابق: ١٤٥/٩.

٣٣. الحجاج يعفو

قال المدائني: أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: «إن لي عندك يدا، قال: وما هي؟ قال: «ذكر ابن الأشعث يوما أمك فرددت عليه، فقال: «ومن يشهد لك؟ قال: «صاحبي هذا! فسأله فقال: «نعم! فقال: ما منعك أن تفعل كما فعل؟ قال: «بُغضك»، قال: «أطلقوا هذا لصدقه، وهذا لفعله».

فأطلقوهما^(١).



(١) المرجع السابق: نفس الصفحة.

٣٤. الحجاج و جحدر بن مالك

ذكر محمد بن زياد عن ابن الأعرابي فيما بلغه أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان فاتكا بأرض اليمامة، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه، فما زال نائبها في طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج، فقال له الحجاج: «ما حملك على ما كنت تصنعه؟»

فقال: «جراءة الجنان، وجفاء السلطان، وكلب الزمان، ولو اختبرني الأمير لوجدني من صالح الأعوان، وشهم الفرسان، ولوجدني من أصلح رعيته، ذلك أني ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً»، فقال له الحجاج: «إنا قاذفوك في حائر فيه أسدٌ عاقر فإن قتلك كفافاً مؤنتك، وإن قتلته خرينا سبيك».

ثم أودعه السجن مقيداً مغلولاً يده اليمنى إلى عنقه، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث بأسد عظيم ضار، وقد قال جحدر هذا في محبسه هذا أشعاراً يتحزن فيها على امرأته سليمة أم عمرو ويقول في بعضها:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك بنا تداني
بلى وترى الهلال كما نراه ويعلوها النهار إذا علاني

إذا جاوزتما نخلات نجد وأودية اليمامة فانعيا
وقولا جحدر أمسى رهينا يحاذر وقع مصقول يمانى

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام، ثم أبرز إلى حائر - وهو البستان - وأمر بجحدر فأخرج في قيوده ويده اليمنى مغلولة بحالها، وأعطى سيفاً في يده اليسرى وخلق بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه في منظر، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول:

ليثٌ وليثٌ في مجالِ ضنكٍ كلاهما ذو أنفٍ ومحكٍ
وشدة في نفسه وفتكٍ إن يكشف الله قناع الشك

فهو أحق منزل بترك

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف لهواته، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح، من شدة الضربة، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد وشدة موضع القيود عليه، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأشار جحدر يقول:

يا جهل إنك لو رأيت كريهتي في يوم هول مسدف وعجاج

وتقدمي لليث أرسف موثقا كيا أساوره على الإخراج
 شثن برائنه^(١) كأن نيوبه زرق المعاول أو شبة زجاج
 يسمو بناظرتين تحسب فيهما لهبا أحدهما شعاع سراج
 وكأنها خيطت عليه عباءة برقاء أو خرقا من الديباج
 لعلمت أني ذو حفاظ ماجد من نسل أقوام ذوي أبراج

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده، وإن شاء انطلق إلى بلاده،
 فاختار المقام عند الحجاج، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً^(٢).



(١) الشثن: غلظ في الأنامل. وأسد شثن البرائن، وهي مخالبه

(٢) البداية والنهاية: ١٤٦/٩

٣٥. الحجاج ينفق في يوم ما ينفقه الخليفة

قال ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة معمر بن
المنشئ.

قال: لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق، وسع على الناس
في العطاء، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في
اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الأسبوع ما لا ينفقه أمير
المؤمنين في الشهر، ثم قال منشدا:

عليك بتقوى الله في الأمر كله وكن يا عبيد الله تخشى وتضرع
ووفر خراج المسلمين وفيأهمهم وكن لهم حصنا تجير وتمنع

فكتب إليه الحجاج:

لعمري لقد جاء الرسول بكتبكم قراطيس تملأ ثم تطوى فتطبع
كتاب أتاني فيه لين وغلظة وذكرت والذكرى لذي اللب تنفع
وكانت أمور تعتريني كثيرة فأرضخ أو اعتل حينا فأمنع
إذا كنت سوطا من عذاب عليهم ولم يك عندي بالمنافع مطمع
أيرضي بذاك الناس أو يسخطونه أم احمد فيهم أم ألام فأقذع
وكان بلاد جئتها حين جئتها بها كل نيران العداوة تلمع

فكاسيت منها ما علمت ولم أزل أصارع حتى كدت بالموت أصرع
 وكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ولو كان غيري طار مما يروع
 وكنت إذا هموا بإحدى هئاتهم حسرت لهم رأسي ولا أتقنع
 فلو لم يزد عني صناديد منهم تقسم أعضائي ذئاب وأضبع

قال: فكتب إليه عبد الملك: أن أعمل برأيك^(١).



(١) البداية والنهاية: ١٤٧/٩، تاريخ دمشق: ١٥٤/١٢، الجليس الصالح: ١٣٥

٣٦. الحجاج وسارق

قال الثوري عن محمد بن المستورد الجمحي قال: أُتِيَ الحجاج بسارق فقال له: «لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك»، فقال الرجل: «إذا قل ذات اليد سخت النفس بالمتالف».

قال: «صدقت والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً. يا غلام سيفٌ صارم ورجل قاطع، فقطع يده^(١).



(١) البداية والنهاية: ١٤٧/٩، تاريخ دمشق: ١٥٥/١٢.

٣٧. الحجاج يأبى النبيذ

قال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال: تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبد الملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ فقال: «يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت، ولكني أنهى عنه أهل العراق وأهل عملي، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) [هود: ٨٨]»^(١).



(١) المراجع السابقة نفسها ، نفس الصفحات.

٣٨. الخليفة عبد الملك يعتب على الحجاج

قال عمر بن شبة عن أشياخه قال: كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب عليه في إسرافه في صرف الأموال، وسفك الدماء، ويقول: «إنما المال مال الله ونحن خزانه، وسيان منع حق أو إعطاء باطل»^(١).

وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات: -

إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها وتطلب رضائي في الذي أنا طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هاربا إلى الله منه ضيع الدر حالبه
فان تر مني غفلة قرشية فياربها قد غص بالماء شاربه
وإن تر مني وثبة أموية فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تعد ما يأتيك مني فان تعد تقم فاعلمن يوما عليك نوابه

فلما قرأه الحجاج كتب: «أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الأموال، والدماء، فوالله ما بالغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حق أهل الطاعة، فإن كان ذلك سرفا فليحد لي أمير المؤمنين حدا أنتهي إليه ولا أتجاوزه»، وكتب في أسفل الكتاب:

(١) نسخة الكتاب في مروج الذهب ٣ / ١٦٢ وابن الاثم ٧ / ١٦٤.

إذا أنا لم أطلب رضاك وأتقي	أذاك فيومي لا توارت كواكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة	فقامت عليه في الصباح نوابه
أسالم من سالمته من ذي هوادة	ومن لا تسالمه فإني محاربه
إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحته	وأقص الذي تسري إلي عقاربه
فمن يتقي يومي ويرجو إذا عدى	على ما أرى والدهر جم عجائبه ^(١)



(١) البداية والنهاية: ١٤٨/٩، "مروج الذهب" ٥ / ٣٠٨ - ٣١٢، و"تاريخ دمشق" ١٢ /
مرآة الزمان: ٧٤/١٠.

٣٩. عمر بن عبد العزيز يغبط الحجاج

قال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه قال: «ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل»^(١).



(١) المرجع السابق: نفس الصفحة.

٤٠. قتل عمير بن ضابىء

لما ولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وذلك في سنة خمس وسبعين أرسل إليه بعهدده وهو بالمدينة وأمره بالمسير إلى العراق فسار في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة وبدأ بالمسجد وصعد المنبر وأمر بعهدده فقريء على الناس، ثم نزل ودخل منزله ثم دعا بالعرفاء وقال: «ألحقوا الناس بالمهلب بن أبي صفرة وكان يقاتل الخوارج وأتوني بالبراءات بموافاتهم ولا تغلقن أبواب الجسر ليلا ولا نهارا حتى تنقضي هذه المدة فقام إليه عمير بن ضابىء الحنظلي.

وقال: «أنا في هذا البعث وأنا شيخٌ كبير عليل، وابني هذا أشب مني» فقال: «من أنت؟» قال: أنا عمير بن ضابىء.

قال: أسمعت كلامنا بالأمس؟

قال: نعم.

قال: «أنت الذي غزا عثمان بن عفان؟»

قال: بلى.

قال: «يا عدو الله أفلا إلى عثمان بعث بدلا». ثم قال: له أنت القائل:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

قال: نعم.

ثم قال: «ما حملك على ذلك؟»

قال: «إنه حبس أبي حتى مات في الحبس».

فقال الحجاج: «ابنك خيرٌ لنا منك وأني لأحسب في قتلِكَ صلاحَ المصريين». وأمر به فضربت عنقه وأُنهب ماله.

وكان عمير بن ضابئ فيمن دخل على عثمان - رضي الله عنه - فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه، وقال سجنَت أبي حتى مات في السجن، ثم سأله الحجاج فقال: هل بالكوفة أحد غيره؟ قال: نعم كميل بن زياد، فطلبه، فهرب، فأخذ النخع به، وضيق عليهم، فلما رأى كميل ما لقي قومه خرج حتى أتى الحجاج فقال له الحجاج: «أنت الذي أردت ما أردت من أمير المؤمنين عثمان ثم لم ترض حتى أقعدته للقصاص ودفعك عن نفسه» قال: «على أي ذلك تقتلني على عفوه أم على عافيتي» فأمر به فُضربت عنقه ^(١).



(١) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان: ٢٢٧.

٤١. الحجاج يعيب نفسه

قال محمد بن إدريس الشافعي: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج بن يوسف: «ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه، فعب نفسك ولا تحباً منها شيئاً». قال: «يا أمير المؤمنين، أنا لجوج حقود حسود». فقال عبد الملك: «ما في الشيطان شرٌّ مما ذكرت».

وفي رواية أنه قال: «إذا بينك وبين إبليس نسب»^(١). فقال: «يا أمير المؤمنين أن الشيطان إذا رآني سالمني»^(٢).



(١) البداية والنهاية: ١٥١/٩، عيون الاخبار: ١٢/٢.

(٢) تاريخ دمشق: ١٦٧/١٢.

٤٢. الحجاج يخرج من البصرة

قال محمد بن عائشة: أراد الحجاج الخروج من البصرة إلى مكة، فخطب الناس فقال: «يا أهل البصرة، إني أريد الخروج إلى مكة، وقد استخلفت عليكم محمداً ابني، أوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله -ﷺ- في الأنصار، فإنه أوصى في الأنصار أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، ألا وإني قد أوصيته فيكم: ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم، ألا وإنكم قائلون بعدي كلمة ليس يمنعكم من إظهارها إلا الخوف، ألا وإنكم قائلون: لا أحسن الله له الصحابة. وإني معجل لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة»^(١).



(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ٦/٦٤٣، البيان والتبيين: ١/٣٠٧

٤٣. غيبة الحجاج

قال الزبرقان: كنت عند أبي وائل فجعلت أسب الحجاج وأذكر مساوئه، فقال: «لا تسبه وما يدريك لعله قال: اللهم اغفر لي فغفر له».

قال عوف: ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين قال: «مسكين أبو محمد، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه، وإن يغفر له فهنيئاً، وإن يلقى الله عز وجل بقلب سليم فقد أصاب الذنوب من هو خير منه». قال: فقلت لمحمد بن سيرين: وما القلب السليم؟ قال: «أن تعلم أن الله عز وجل حق، وأن الساعة حق قائمة، وأن الله يبعث من في القبور».

وسمع ابن سيرين رجلاً يسب الحجاج، فأقبل عليه فقال له: «مه أيها الرجل، فإنك لو قد وافيت الآخرة، كان أصغر ذنب عملته قط أعظم عليك من أعظم ذنب عمله الحجاج، واعلم أن الله تعالى حَكَمَ عَدْلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه، فسوف يأخذ للحجاج ممن ظلمه، فلا تشغلن نفسك بسب أحد»^(١).

قال رباح بن عبيدة: «كنت عند عمر بن عبد العزيز، فذكر الحجاج فشتمته ووقعت فيه. قال: فنهاني عمر وقال: «مهلاً يا رباح، فإنه بلغني أن الرجل

(١) سير أعلام التابعين، ص ١١٤، وانظر: سير أعلام النبلاء، ٦٠٦/٤-٦٢٢، برقم ٢٤٦، وحلية الأولياء، ٢٩٨/٢-٣٢٠، برقم ١٩٣.

يظلم بالمظلمة، ولا يزال المظلوم يشتم الظالم ويتقصه، حتى يستوفي حقه، ويبقى للظالم الفضل عليه»^(١).

ونقول للذين يطعنون في نيات الناس اسمعوا إلى قول الحسن - ع - حينما سمع أحد جلاسه يسب الحجاج بعد وفاته، فأقبل مغضباً و قال : «يا ابن أخي فقد مضى الحجاج إلى ربه، وإنك حين تقدم على الله ستجد إن أحقر ذنب ارتكبه في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج، و لكل منكما يومئذ شأن يغنيه، و اعلم يا ابن أخي أن الله عز وجل سوف يقتص من الحجاج لمن ظلمهم ، كما سيقص للحجاج ممن ظلموه فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بسب أحد»^(٢).



(١) تاريخ دمشق: ١٢/١٩٠-١٩١

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية (٢٧١/٢)

٤٤. زواج الحجاج من بنت عبد الله بن جعفر

قال الشافعي: لما تزوج الحجاج بنت عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان: أتمكنه من ذلك؟ فقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال فكأنه كان نائماً فأيقظه، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه في طلاقها فطلقها^(١)، وجاء في رواية: يا أمير المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه، فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إني ما أحب أكثر منهم^(٢)، حتى قلت:

تجول خلا خيل النساء ولا أرى خلخالاً يجول ولا قُلُبا
فلا تكثروا فيها الملام فإنني تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بني العوام من أجل حُبِّها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا^(٣)

(١) البداية (٥١٧/١٢).

(٢) الحجاج بن يوسف المفتري عليه صد ١٣٧.

(٣) وفيات الأعيان (٢٢٤/٢، ٢٢٥).

وكان الحجاج يحترم أهل البيت ويكرمهم وما زواجه بينت عبد الله بن جعفر إلا مظهر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم وعلى الرغم من أنه طلقها فما زال واصلاً لعبد الله حتى مات، فكان يرسل له في كل شهر عيراً تحمل كسوة وتحفاً وميرة وكل ما يحتاج إليه^(٢)، وقد تجلى ذلك في أنه قال مرة: «ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيه»، فقام رجل فقال: أنا قاتل الحسين. فقال: كيف قتلته؟؟ قال: «دسرتة بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً». فقال: «أما والله لا يجتمع الحسين وقاتله في الجنة»، وحرمة من العطاء^(٣)، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح، وخصوصاً إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسي الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.



(٢) المستطرف من كل فن مستظرف (٣٢١/٢)

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، سرح العيون لابن نباته ص ١٠٨، الحجاج بن يوسف المفترى عليه ص ٣٩٩.

٤٥. الحجاج وهند بنت النعمان

حُكي أن هند بنت النعمان كانت أحسن نساء زمانها. فوصف للحجاج حسننها فخطبها وبذل لها مالاً جزيلاً وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها. ثم أنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة. وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة. ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة، وتقول:

وما هند إلا مهرةٌ عربيةٌ سلاله أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعاً ولم يدخل عليها. ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: «يا ابن طاهر، طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما». فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها:

«يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فنت. وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله».

فقالت: «اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، ثم بنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف هي لك ببشارتك بخلاصي من كلب ثقيف» ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها، ووصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها لنفسه، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: «اعلم يا أمير المؤمنين، أن الكلب ولغ في الإناء. فلما قرأ عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب، فغسل الإناء محل الاستعمال».

فلما قرأ كتاب أمير المؤمنين، لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه تقول: «بعد الثناء عليه، اعلم يا أمير المؤمنين أني لا أجري العقد إلا بشرط، فإن قلت: ما الشرط؟ أقول: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدتك التي أنت فيها ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً».

فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكاً شديداً، وأرسل إلى الحجاج يأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ولم يخالف وامتثل الأمر.

وأرسل الحجاج إلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل إلى المعرة بلد هند. فركبت في محمل وركب حولها

جواربها وخدمها فترجل الحجاج، وهو حاف، وأخذ بزمam البعير يقوده ويسير بها، فأخذت تهزأ منه وتضحك مع الهيفاء دابتها، ثم إنها قالت لدابتها: يا داييتي اكشفي لي ستارة المحمل لنشم رائحة النسيم! فكشفته فوق وجهها في وجهه فضحكت عليه، فأنشد يقول:

فإن تضحكي يا هند يا رب ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نسب
فالمال مكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك إلى أن قربت من بلد الخليفة فلما قربت من البلد رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت: «يا جمال! إنه سقط منا درهم فادفعه إلينا». فنظر الحجاج إلى الأرض فلم ير إلا ديناراً فقال: إنما هو دينار. فقالت: بل درهم. قال: بل دينار. فقالت: «الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله ديناراً». فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان^(١).



(١) نواذر الخلفاء: ٥٤، أخبار النساء: ١١١، المستطرف: ٦٤

٤٦. رؤية رآها الحجاج

رأى الحجاج أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة فطلّقتها ليتأوّل رؤياه بهما، فمات ابنه محمد وجاءه نعي أخيه محمد من اليمن، فقال: «هذا والله تأويل رؤياي محمد ومحمد في يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون ثم قال من: يقول شعراً فيُسلني به فقال الفرزدق:

إن الرّزية لا رزية بعدها فقدان مثل محمد ومحمد
مَلِكاً قد خلت المنابر منهما أخذ الحمام عليهما بالمرصد^(١)



(١) شذرات الذهب (٣٨٢/١) .

٤٧. من صفات الحجاج واصلاحاته

من صفات الحجاج:

١ - حفظه للقرآن وفقهه:

قال بعض السلف: كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة^(١).

٢ - الصدق:

اشتهر الحجاج بالصدق وانعدم لديه الكذب والغدر، فكان حازم الرأي، لا يداجي ولا يماري، ولا يكذب ولا يغدر^(٢).

٣ - عقليته وسياسته:

قال الدارقطني: ذكر سليمان بن أبي منيح، عن صالح بن سليمان قال: قال عقبة بن عمرو: «ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا الحجاج، وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس»^(٣).

٤ - قبوله للنصح:

(١) البداية والنهاية: ١٣٨/٩.

(٢) هزاع الشمري، الحجاج، ص ٤٦.

(٣) البداية والنهاية: ١٣٩/٩.

فقد كان الحجاج يقبل النصح، ويأخذ به، ويتقبل الآراء من الآخرين، وخاصة أولئك الناس القادرين على إسداء النصح^(١).

أما إصلاحات الحجاج فمنها:

- ١ - تعجيم القرآن، وتنقيط الحروف الهجائية.
- ٢ - تحويل الدواوين من الفارسية إلى العربية.
- ٣ - بناء القوة العسكرية في الخليج، وبحر الهند.
- ٤ - إصلاح السفن.
- ٥ - تنظيم الإصلاح الزراعي.
- ٦ - العناية الفائقة في الكيان الاقتصادي^(٢).



(١) هزاع الشمري، الحجاج، ص ٥١.

(٢) هزاع الشمري، الحجاج، ص ٥٧.

٤٨. مرض الحجاج

قال الأصمعي: لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته فقال في خطبته: «إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا: مات الحجاج، ومات الحجاج فمه؟ ! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني أن لا أموت وأن لي الدنيا وما فيها، وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون^(١) خلقه عليه إبليس، قال الله له: **(إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)** [الأعراف: ١٤] فأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال: **(هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)** [ص: ٣٥] فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره، فقال: **(تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)** [يوسف: ١٠١] فما عسى أن يكون أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كأني والله بكل حي منكم ميتا، وبكل رطب يابس، ثم نقل في أثياب أكفانه ثلاثة أذرع^(٢) طولاً في ذراع عرضاً، فأكلت لحمه، ومصت صديده، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله، إن الذين يعقلون ما أقول، ثم نزل^(٣).



(١) في العقد ٣ / ١٧: لأبغض خلقه إليه وأهونهم عليه.
 (٢) في مروج الذهب: فخذ له في الأرض ثلاثة أذرع طولاً في ذراعين عرضاً.
 (٣) البداية والنهاية: (١٥٨/٩).

٤٩. كيف مات الحجاج؟ !

كان موت الحجاج درامياً كحياته تماماً، أو لنقل إنه مات بسبب أو بآخر جزاء حياته، فقد مرض مرضاً غريباً يحكي عنه المؤرخون الثقة كابن خلكان، حيث قال: «كان مرضه بالأكلة وقعت في بطنه، ودعا بالطبيب لينظر إليها، فأخذ لحماً وعلقه في خيط وسرحه في حلقة وتركه ساعة، ثم أخرجه وقد علق به دود كثير، وسلط الله عليه الزمهرير (شدة البرد)، فكانت الكوانين^(١) تُجعل حوله مملوءة ناراً، وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها، وشكا ما يجده إلى الحسن البصري فقال له: «قد كنت نهيتك أن تتعرض إلى الصالحين فلججت»، فقال له: «يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني، ولكن أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روعي ولا يطيل عذابي»، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وأقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوماً، وتوفي في شهر رمضان - وقيل في شوال - سنة خمس وتسعين للهجرة، وعمره ثلاث وقيل: أربع وخمسون سنة، وهو الأصح.

ويبدو أن الحجاج كان يستشعر في مرضه موقف الناس منه، فكان ينشد في مرض موته هذين البيتين - وهما لعبيد بن سفيان العكلي:

(١) الكائون: الموقد

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا أيمانهم أنني من ساكني النار

أجلفون على عمياء ويحهم ما ظنهم بعظيم العفو غفار (١)

وزاد بعضهم في ذلك: -

إن الموالي إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار

وأنت يا خالقي أولى بذا كرما قد شبت في الرق فأعتقني من

النار

وكتب إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بمرضه، وكتب في آخره:

إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن سرور النفس فيما هنالك

فحسبي حياة الله من كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك

لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن عبد الله التيمي قال: لما مات الحجاج لم

يعلم أحد بموته حتى أشرفت جارية فبكت فقالت: «ألا إن مطعم الطعام،

وميتم الأيتام، ومرمل النساء، ومفلق الهام، وسيد أهل الشام قد مات».

(١) البداية والنهاية (١٢ / ٥٥٠).

وعندما اشتدت عليه العلة عمل على تدبير شؤون العراق من بعده بما يحفظه من الاضطراب والفتن، و يبقية جزءاً من الدولة الأموية، حتى إذا اطمأن إلى ذلك كتب وصيته ليبرئ فيها نفسه و ذمته تجاه خالقه وخليفته المسؤول أمامه في الدنيا حتى آخر لحظة من حياته، فكتب يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده و رسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا و عليها يموت و عليها يبعث .. الخ^(١).

و يروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: «إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع»^(٢).

وقال الطبري في تاريخه الكبير: توفي الحجاج يوم الجمعة لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمس وتسعين، وقال غير الطبري: لما جاء موت الحجاج إلى الحسن البصري سجد له شكراً وقال: اللهم إنك قد أمتته فأمت عنا سنته^(٣)، وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها، وعفى قبره، وأجري عليه الماء.

(١) تهذيب تاريخ دمشق (٦٨/٤).

(٢) محاضرات الأدباء (٤٩٥/٤).

(٣) شذرات الذهب (٣٨١/١).

ولما قيل للحسن البصري: «إن الحجاج قال عند الموت كذا وكذا. قال:
أقألهأ؟ قالوا: نعم. قال: عسى^(١).



(١) المصدر نفسه (٥٥٠/١٢).

ختاماً

وبعد هذا التطواف مع مواقف من حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، لا شك أن شخصية الحجاج أصبحت أكثر وضوحاً وإنصافاً، فإن كان للحجاج مواقف سفك فيها الدماء، فإن له مع ذلك مواقف خدم فيها الإسلام بالفتوحات وتثبيت أركان الدولة الإسلامية آنذاك، ونحن بهذا لا نبرئ ساحة الحجاج بل يتولاه ويحاسبه ربٌ رحيم شديد العقاب، أما نحن فكفانا ذنوبنا وسيئاتنا وأوزارنا التي بلغت عنان السماء وليس لها إلا عفو العفو جل جلاله.

والمؤمن الفطن هو الذي يأخذ الحكمة من أي إناء خرجت، وينظر بعين النملة لا بعين الذباب وقيس أخاه المسلم بحسناته وسيئاته. وإذا الحبيب أتى بسيئة جاءت حسناته بألف شفيح

أسأل الله الكريم المتعال أن يتولانا جميعاً بعفوه، ويخصنا برحمته وفضله، فهو وحده يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمير بن محمد المدري

اليمن - المهرة

Almadari_1@hotmail.com

وتس أب: ٩٦٧٧١١٤٢٣٢٣٩



المراجع

- ١ . الأمل في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي سنة الوفاة ٣٥٦هـ، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، بيروت.
- ٢ . الأوائيل: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار البشير، طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ.
- ٣ . أبراج الزجاج في سيرة الحجاج، إعداد عبد الرحمن بن سعيد بن علي بن وهف - - ، تحقيق د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ١٤٠٣هـ - ١٤٢٢هـ.
- ٤ . أخبار النساء، ابن الجوزي، شرح وتحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٨٥ .
- ٥ . البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: علي شيري ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ هـ.
- ٦ . البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- ٧ . تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١١ هـ.
- ٨ . تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ترجمة: محمود فهمي حجازي

- وآخرين، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٣ م.
٩. تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، د. ت.
١٠. تاريخ الدارمي، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: أحمد محمد نور يوسف، دمشق، دار المأمون للتراث، د. ت.
١١. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧١ م.
١٢. التاريخ الصغير، للإمام البخاري، تحقيق: محمود إبراهيم زيد، حلب، ١٩٧٧ م.
١٣. تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٦ هـ.
١٤. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت. مصورة عن طبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٩ هـ.
١٥. تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: محيي الدين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥ هـ.
١٦. تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، علي حسني الخربوطلي، - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٩ م.
١٧. تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي دار الشروق.

١٨. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، أبو عبد الله محمد بن يحيى الأشعري الأندلسي، تحقيق: د. محمود يوسف زايد، دار الثقافة - الدوحة - قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥.
١٩. تهذيب الكمال، المزي، تحقيق: بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م.
٢٠. الحجاج بن يوسف الثقفي، إحسان صدقي العمدة: - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٣م.
٢١. الحجاج بن يوسف المفترى عليه، محمود زيادة، دار السلام.
٢٢. الحجاج بن يوسف الثقفي، وجه حضاري من تاريخ الإسلام، هزاع بين عيد الشمري، دار أمية، ط ٢، ١٩٩٣م.
٢٣. الحجاج طاغية العرب، الحسيني الحسيني معدي، كنوز للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
٢٤. المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريري النهرواني، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٢٥. الخلافة والدولة في العصر - الأموي، الخلافة والدولة في العصر - الأموي، محمد حلمي، مكتبة الشباب، ١٩٦٦م.

٢٦. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين العصامي المكي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٢٧. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت.
٢٨. شذرات الذهب، عبدالحى بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٠ هـ.
٣٠. عبد الله بن عمر، محيي الدين مستو، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧ م.
٣١. العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، عبد الواحد ذنون طه: - منشورات مكتبة باسل - الموصل - العراق - ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
٣٢. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٣٨١ هـ.
٣٣. الكامل في التاريخ، على بن أبي الكرم ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد

السلام تدمري ، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.

٣٤. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، محمد بن مكرم ابن منظور

(المتوفى: ٧١١ هـ)، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد

مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق -

سوريا، ط١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤ م.

٣٥. المستطرف في كل فن مستظرف، الأبرشي، بيروت، دار مكتبة

الحياة، ١٩٨٨ م، وبيروت دار الفكر.

٣٦. نوادر الخلفاء المشهور بـ «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني

العباس»، محمد، المعروف بدياب الإليدي (المتوفى: ق

١٢ هـ)، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية،

بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٣٧. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن

بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر

عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ -

١٩٩٢ م.

٣٨. وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس - دار صادر -

بيروت - ١٩٧٩ م.

